

# الباب الحادى عشر

## مواهب أغسطس السياسية

٣٠ ق . م - ١٤ ب . م

### الفصل الاول

#### فى الطريق إلى الملكية

انتقل أكتافيان من الإسكندرية إلى آسية وواصل فيها توزيع الممالك والولايات. ولم يصل إلى إيطاليا إلا فى صيف عام ٢٩ ق . م . ولم تكذبى طبقة من طبقات الأهلين فيها إلا حيته واحتفلت بمقدمه ، وعدته منقذ البلاد ، واشتركت فى موكب النصر الذى دام ثلاثة أيام متوالية . وأغلق هيكل يانوس إشارة إلى أن إله الحرب قد نال كفايته إلى حين ، فقد أنهكت الحرب الأهلية التى دامت عشرين عاماً شبه الجزيرة التى كانت تشتهى الحرب وتتعطش للدماء . وفى هذه الفترة أهملت المزارع ونهبت المدن أو ضرب عليها الحصار ، وسرق الكثير من ثروتها أو دمر تدميراً ، وتحطم دولاب الإدارة ووسائل الدفاع عن النفس والمال ؛ وجعل اللصوص الشوارع كلها غير مأمونة خلال الليل ، وكان قطاع الطريق يجوبون المسالك يخطفون المسافرين ويبيعونهم ببيع الرقيق . وكان من أثر هذا أن كسدت التجارة ، ووقفت حركة الاستثمار ، وارتفعت فوائد الديون ارتفاعاً فاحشاً ، ونقصت قيمة الأملاك . ولم يكن للفاقة والفوضى أثر فى تحسين الأخلاق التى انحلت بسبب الثروة والترف ؛ ذلك أنه قلما توجد ظروف أشد إفساداً للأخلاق من الفقر الذى يعقب الغنى ، ولذلك امتلأت رومة بالرجال

الذين فقدوا مركزهم الاقتصادي وخسروا اترانهم الأخلاق : من جنود ذاقوا طعم المغامرات وتعلموا فنون التقتيل ؛ ومواطنين أبصروا بأعينهم مدخراتهم تلتهمها الضرائب الفادحة وتضخم العملة وهما من مستلزمات الحروب ، وكانوا ينتظرون أن يحدث حادثاً ما ينتشلهم من الوهدة التي تردوا فيها ويعيد إليهم الثراء والنعيم ؛ ومن نساء ذهبت الحرية بعقولهن فكثر بينهن الطلاق والإجهاض والزنى ؛ وانتشر العقم لضعف الرجولة وأخذت السفسطة الضحلة تفجر بنزعتها المتشائمة الساخرة :

على أن هذا الوصف لا يحمل إلى القارئ صورة كاملة لرومة في ذلك الوقت ، بل يجب أن يضاف إليه وباء فتاك ينخر عظامها وتسرى جراثيمه في دماؤها . فقد عادت القرصنة إلى البحار ، وكانت تزداد بهجة وسروراً كلما تدهورت الولايات وأشرفت على الدمار . وسغبت المدن والولايات لما توالى عليها من الابتزاز والنهب في أيام صلا ، ولوكلس ، وميبي ، وجابنيوس ، وقيصر ، وبروتس ، وكاسيوس ، وأنطونيوس ، وأكتافيان . وحل الحراب ببلاد اليونان التي كانت ميدانا للقتال ، ونهبت أموال مصر وأرزاق أهلها ، وأطعم الشرق الأدنى مائة جيش ورشا ألف قائد ؛ وكان أهله يبغضون رومة أشد البغض لأنها هي السيد الذي قضى على حریتهم دون أن يعرضهم عنها أمناً أو سلاماً ؛ وكانوا يتطلعون إلى زعيم يقوم بينهم ، فيكشف عما تعانيه إيطاليا من ضعف وخور ، ويجمع شتاتهم ويقودهم في حرب يتحررون بها من سيطرة رومة .

وكان في وسع مجلس الشيوخ القوي في يوم من الأيام أن يواجه هذه الأخطار ، فيعبي الفيالق الضخمة ، ويجدها القادة المهرة ، ويمدهم بحنكته وكفايته السياسية البعيدة النظر . أما الآن فلم يبق من مجلس الشيوخ إلا اسمه ، فقد انقرضت الأسر التي كان يستمد منها القوة ، وقضى عليها النزاع الطويل أو العقيم ، ولم تنتقل تقاليد الحكم التي كانت تمتاز بها هذه الأسر إلى رجال

الأعمال وإلى الجنود وأهل الولايات الذين خلفوها في المجلس الجديد . ومن أجل هذا فقد أسلم هذا المجلس معظم ما كان له من سلطان إلى رجل في وسعه أن يرسم الخطط ، ويتحمل التبعات ، ويقود ، وأسلمها إليه وهو شاكر ومغتبط ، وتردد أكتافيان طويلاً قبل إلغاء هذه الهيئة القديمة ، ويصوره ديو كاسيوس Dio Cassius ، وهو يبحث المسألة بحثاً مفصلاً مع ماسيناس وأجرى ، فيقول إنهم كانوا يرون أن الحكومات كلها حكومات أجنبية ، ولذلك فإن المشكلة المعروضة أمامهم لم تكن مشكلة الاختيار بين الملكية ، والأرستقراطية ، والديمقراطية ؛ بل كان عليهم أن يقرروا : هل تضطرهم ظروف الزمان والمكان أن يفضلوا الأخرى في صورة الملكية المعتمدة على الجيش ، أو في صورة الأرستقراطية المتأصلة في الوراثة ، أو في صورة الديمقراطية التي تعتمد على ثروة طبقة رجال الأعمال ؟ وقد وفق أكتافيان بينها كلها في « زعامة امتزجت فيها نظريات شيشرون وسابقات ببي وسياسات قيصر » .

وقبل الشعب هذا الحل قبول الفلاسفة ؛ ذلك أنه لم يعد حريصاً على الحرية مولعاً بها ، بل كان قد مل الفوضى وتاقت نفسه إلى الأمن والنظام ، وكان يرضى أن يحكمه أى إنسان يضمن له الخبز والألعاب . وأدرك إدراكاً يكتنفه الغموض أن صحبته السمجة التي يتغلغل فيها الفساد ويمزقها العنف ، لا تصلح لحكم الإمبراطورية ، ولا تستطيع إعادة الحياة إلى إيطاليا المريضة ، بل أنها لا تستطيع أن تحكم مدينة رومة نفسها . هذا إلى أن الصعاب التي تكتنف الحرية تتضاعف كلما اتسعت رقعة الأراضي التي تعتنقها . فلما لم تعد رومة دولة لا تشمل أكثر من مدينة واحدة دفعها النظام الإمبراطوري دفعاً إلى أن تحذو حذو مصر وفارس ومقدونية ولم يكن في وسعها أن تقاوم هذا الدفع الشديد ، وكان لابد أن تقوم على أنقاض الحرية ، التي استحالت فردية وفوضى ، حكومة جديدة تضع للدولة المترامية الأطراف نظاماً جديداً . وكان عالم البحر الأبيض المتوسط كله عالماً

مختل النظام ، مترامياً تحت قدمي أكتافيان ، ينتظر منه أن يبسط عليه الحكم الصالح .

ونجح أكتافيان فيما أخفق فيه قيصر لأنه كان أكثر من قيصر صبراً ، وأوسع منه حيلة ، ولأنه كان يفهم فن الألفاظ والأشكال ، ويرضى أن يسير سيراً وثيداً حذراً في المواقف التي اضطر فيها عمه العظيم لضيق وقته أن يخرج على التقاليد المرعية ، ويحدث في نصف عام من حياته من التغييرات ما يتطلب جيلاً كاملاً . وفوق هذا فقد كان المال موفواً لدى أكتافيان . ويقول سوتنيوس إنه لما جاء بكنوز مصر إلى رومة « كثرت فيها النقود كثرة انخفض معها سعر الفائدة » من اثني عشر إلى أربعة في المائة ، و « ارتفعت قيمة الأملاك الثابتة ارتفاعاً عظيماً » . وما كاد يتضح للناس أن حقوق الملكية قد عادت إليها قدسيتها وأن أكتافيان قد فرغ من أحكامه على أعدائه ومن مصادرة الأملاك ، حتى خرجت الأموال من مخابثها وعاد الاستثمار سيرته الأولى ، وراجت التجارة ، وأخذت الثروة تتجمع من جديد ، وتسرب بعضها إلى جيوب العمال والأرقاء . ولشد ما اغتبطت جميع الطبقات في إيطاليا بعد أن عرفت أن تلك البلاد ستبقى هي المستمتعة بخبرات الإمبراطورية ، وأن رومة ستظل عاصمتها ، وأن خطر نهضة الشرق وبعثه قد زال إلى حين ، وأن ما كان يحلم به قيصر من قيام اتحاد من أمم حرة متساوية في الحقوق لم يسفر إلا عن العودة في هدوء إلى امتيازات الشعب المفضل صاحب السيادة .

وكان أول ما فعله أكتافيان بالأموال الجمة التي انتهبها أن وفي بما عليه لجنوده من الديون . وقد استبقى في الخدمة منهم مائتي ألف رجل أقسم كل واحد منهم يمين الولاء له شخصياً ، وسرح الثلاثمائة ألف الباقين بعد أن أقطع كلا منهم مساحة من الأراضي الزراعية ونفحة بهبة مالية سخية . ووزع الهدايا الثمينة على قواده وأنصاره وأصدقائه ، وكثيراً ما كان يسد العجز الذي يحدث في الخزانة

العامه عن ماله الخاص . وكان إذا رأى ولاية من الولايات حل بها الضنك بسبب الأحوال السياسية أو الطوارئ الطبيعية أعفاها من خراج العام ، وبعث إليها بالمال الكثير لإنقاذها مما تعانیه . وألغى جميع المتأخر من الضرائب على أصحاب الأملاك ، وأحرق علناً السجلات التي تثبت ما عليهم للدولة من الديون ، وأدى من أموال الدولة ثمن ما يوزع من الغلال على المحتاجين ، وأقام الألعاب للشعب على نظام واسع ، وقدم المال لجميع المواطنين . ثم شرع في إقامة المنشآت العامة ليقضى بذلك على التعطل ويحمل رومة ، وأنفق على هذه الأعمال من أمواله الخاصة ، فلا غرابة بعد هذا إذا نظرت إليه الأمة نظرتها إلى إله معبود .

وبينا كانت هذه الأموال الطائلة تتسرب من يديه كان هذا الإمبراطور المتواضع يعيش عيشة بسيطة خالية من مظاهر العظمة ، ويتجنب ترف النبلاء ، ومتع المنصب وأبهته ، يرتدى الأثواب التي تنسجها له النساء في بيته . وينام على الدوام في حجرة صغيرة في الدار التي كانت من قبل قصر هورتنسيوس . ولما احترق هذا القصر بعد أن أقام فيه ثمانية وعشرين عاماً ، أقام له قصرأً جديداً على نظام القصر القديم ، وكان ينام في نفس الحجرة الضيقة التي كان ينام فيها من قبل . وكانت متعته الوحيدة أن يفر من الشؤون العامة بركوب زورق تدفعه الرياح دفعاً بطيئاً على طول ساحل كميانيا .

واستطاع على مر الوقت أن يقنع مجلس الشيوخ والجمعيات الوطنية ، أو أن يتفضل بالسماح لها ، بأن تخلع عليه السلطات التي جعلته في مجموعها ملكاً في كل شيء إلا في الاسم وحده . وقد احتفظ على الدوام بقاب إمبراطور imperator بوصفه القائد الأعلى لجميع القوات المسلحة في الدولة . وإذا كان الجيش قد بقي معظمه خارج حدود العاصمة على الدوام ، وخارج حدود إيطاليا في معظم الأحوال ، فقد كان في وسع المواطنين أن ينسوا ، وهم يمارسون جميع المراسم الشكلية للجمهورية الميته ، أنهم يعيشون في كنف حكومة ملكية

عسكرية تختفي منها مظاهر القوة طالما كانت الألفاظ كافية للحكم . واختير  
أكتافيان قنصلا في عامي ٤٣ و ٣٣ وفي كل عام من الأعوام المحصورة بين  
٣١ ، ٢٣ . ونخلعت عليه في أعوام ٣٦ ، ٣٠ ، ٢٣ سلطات التربيون  
فكسب بذلك طول حياته الحصانة التي يتمتع بها التربيون ، وأصبح له حق  
وضع القوانين وعرضها على مجلس الشيوخ أو الجمعية ، وحق الاعتراض  
على أعمال كل موظف في الحكومة ووقفها . ولم يعترض أحد على هذه  
الدكتاتورية المحبوبة ، ذلك أن رجال الأعمال الذين امتلأت خزائهم أيام  
السلام والشيوخ الذين امتلأت خياشيمهم برائحة غنائم أكتافيان المصرية ،  
والجنود المدنين لكرمه بأرضهم أو مراكزهم ، وكل من عادت عليهم  
بالنفع قوانين قيصر ، ومناصبه ووصيته - كل هؤلاء كانوا يقولون  
ما يقوله هومر من أن حكومة الفرد خير أنواع الحكومات كلها ،  
أو أنها في القليل خيرا إذا كان هذا الفرد كأكتافيان حر التصرف في  
أمواله ، وإذا كان في مثل جده وكفايته ، وإذا كان مثله بين الإخلاص  
لخير البلاد .

ولما كان رقيباً مع أچرپا في عام ٢٨ أجرى إحصاء عاماً للسكان ، وأعاد  
النظر في عضوية مجلس الشيوخ ، فأنقص عدد الأعضاء إلى ستمائة عضو ،  
ولقب هو نفسه مدى الحياة بلقب « زعيم الشيوخ » princeps senatus .  
هذا اللقب في بادئ الأمر « الأول في ثبت أعضاء مجلس الشيوخ » ، ثم  
ما لبث أن أصبح معناه « الزعيم » بمعنى الحاكم كما أصبح معنى لفظ  
imperator بعد أن نخلع هذا اللقب على أكتافيان هو إمبراطور emperor بالمعنى الذي  
يفهم من هذا اللفظ في هذه الأيام . ويسمى التاريخ بحق حكومته وحكومة  
خلفائه مدى قرنين من الزمان بحكومة « الزعامة » ولا يسميها الحكومة  
الملكية بالضبط ، وذلك لأن الأباطرة "emperors" كانوا يعترفون - نظرياً  
على الأقل - بأنهم لم يكونوا إلا زعماء (principes) مجلس الشيوخ . وأراد  
أكتافيان أن يجعل مظهر سلطته الدستورية أروع من ذي قبل ، فنزل في

عام ٢٧ عن جميع مناصبه ، وأعلن عودة الجمهورية ، وصرح برغبته (وهو في الخامسة والثلاثين من عمره) باعتزال الحياة العامة . وأكبر الظن أن هذه المسرحية قد أعدت من قبل ؛ فقد كان أكتافيان من أولئك الرجال الحذرين الذين يعتقدون أن الأمانة خير أساليب السياسة ، بشرط أن تمارس في بحكمة وحسن تدبير . ومهما تكن حقيقة هذا الأمر فقد قابل مجلس الشيوخ نزول أكتافيان عن حقوقه بنزوله هو أيضا عما له من حقوق ، وتوسل إليه أن يظل هادياً للدولة ومنصرفاً لأمرها ، ومنحه لقب أغسطس وهو اللقب الذي أخطأ المؤرخون فحسبوه اسمه . ولم يكن هذا اللفظ يستعمل من قبل إلا في وصف الأشياء والأماكن المقدسة وبعض الأرباب المدعة أو المكثرة (ومعنى أوجير Augere باللاتينية «يزيد» ) ؛ فلما أن أطلق على أكتافيان خلع عليه هالة من القداسة وحباه بحماية الدين والآلهة .

ويلوح أن سكان رومة قد بدا لهم زمناً ما أن «عودة» الجمهورية كانت عودة حقيقية ، وأنهم استعادوها فعلاً في نظير صفة خلعوها على أكتافيان . ولم لا ؟ ألا يزال مجلس الشيوخ والجمعيات هي التي تسن القوانين ، وتختار كبار الحكام ؟ إن أحداً لا ينكر ذلك وكل ما يفعله أغسطس وعماله هو أن «يقترحوا» القوانين و«يرشحوا» أرباب المناصب الهامة . وكان أكتافيان بوصف كونه إمبراطوراً وقنصلاً يسيطر على الجيش والحزاة ، وينفذ القوانين ، وكان بفضل امتيازاته التربيونية يشرف على كل ما عدا ذلك من أعمال الحكومة . ولم تكن حقوقه أوسع كثيراً من حقوق بركليز pericles أو بيمبي أو أى رئيس نشيط من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية . ولكن الفرق كله أن سلطاته هو كانت دائمة . وقد انتقل في عام ٢٣ من القنصلية ، ولكن مجلس الشيوخ منحه وقتئذ «سلطات القنصل» وإن لم يبق له اسمه ، فجعله بذلك المسيطر على الموظفين جميعهم في الولايات كلها .

ولم يعترض أحد على ذلك في هذه المرة أيضاً ؛ بل حدث عكس هذا

وذلك أنه لما لاح خطر نقص الحبوب حاصر الشعب مجلس الشيوخ ، وأخذ يطالب بجعل أغسطس دكتاتوراً . وكان سبب ذلك أنهم قد ساءت أحوالهم في عهد أبجركية مجلس الشيوخ إلى حد جعلهم يميلون إلى الدكتاتورية التي ستخطب ودهم في زعمهم لتقضى بذلك على سلطان الأغنياء . وأبى أغسطس أن يقبل هذا العرض ولكنه وضع الأنونا Annona أو موارد الطعام تحت سلطانه ، وقضى على خطر القحط في أقرب وقت ؛ وحمله الشعب عمله هذا حمداً جعل رومة ترتاح أشد الارتياح حين أقدم على تعديل نظم الدولة على النحو الذي رسمه لها في ذهنه .

## الفصل الثاني

### النظام الجديد

والآن فلندرس حكومة الزعامة ببعض التفصيل لأنها كانت في كثير من نواحيها من أعظم الأعمال السياسية في التاريخ ومن أكثرها دقة .

لقد جمع الزعيم في يده كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ؛ فكان من حقه أن يقترح القوانين على الجمعيات أو على مجلس الشيوخ ويعرض المراسيم ؛ وكان في وسعه أن ينفذها وأن يفرضها بالقوة إذا شاء ، وأن ينشرها ويعاقب الخارجين عليها . ويقول سوتونيوس إن أغسطس كان يجلس مجلس القاضى بانتظام وإن مجلسه كان يدوم في بعض الأحيان حتى يحن الليل « وكان يأمر بوضع محفة فوق المنصة يلجأ إليها إذا أصابته وعكة ... وكان رجلاً حى الضمير ليناً في أحكامه إلى حد كبير » وإذا كان قد ألقيت عليه تبعة مناصب كثيرة فقد شكل له مجلساً غير رسمى من المستشارين أمثال ماسناس ، ومن المنفذين لقراراته أمثال أجربا ، ومن القواد أمثال تيبيريوس ، كما أنشأ له هيئة من صغار الكتبة وعمال الإدارة البيروقراطية معظمهم من أرقائه ومعايقه .

وكان كيس ماسناس من أثرياء رجال الأعمال ، وكان قد قضى نصف حياته يساعد أغسطس في الحرب والسلم وفي أعماله السياسية الداخلية والخارجية ، وساعده أخيراً على الرغم منه في مغامراته النسائية . واشتهر قصره العائم على تل الأكولين بحداثته الغناء وببزكة استجمامه ذات الماء المسخن . وكان أعداؤه يصفوته بأنه شخص . مخنث أبيقورى لأنه كان يتباهى بلبس الحرير والتحلل بالجواهر ، وأنه يعرف كل ما يعرفه المنبسطان الرومانى . وكان يستمتع بالأدب والفن ويناصرهما بكرم وسخاء ، وقد أعاد إلى فرجيل ضيعته ووهب هوراس ضيعة

أخرى . وكان هو الموحى بكتابي الجورجين Georgics والأناشيد . وأبى أن يشغل أى منصب من المناصب العامة ، مع أنه كان فى وسعه أن يحصل منها على أى منصب يريدُه إلا القليل . وقد ظل سنين طويلاً يجهد نفسه فى بحث مبادئ السياسة الخارجية ووقائعها ، وبلغ من شجاعته أن كان يعنف أغسطس إذا ظنه قد وقع فى خطأ موبق . ولما مات ( فى عام ٨ ق . م ) حزن عليه الزعيم وعد موته خسارة لا تعوض .

ولعل أغسطس ( وأصله من الطبقة الوسطى ولم يكن يحتقر التجارة كما يحتقرها الأشراف ) كان يعمل بمشورته حين رشح كثيرين من رجال الأعمال للمناصب الإدارية الكبرى وإلى حكم الولايات نفسها . ولما تدمر مجلس الشيوخ من هذه البدعة ، استرضاه بأشياء كثيرة : ففتح بعض لجانه سلطات استثنائية ، وجمع حوله مجلساً من الزعماء المستشارين مؤلفاً من حوالى عشرين رجلاً كلهم تقريباً من الشيوخ ، وأصبح لقرارات هذا المجلس على مدى الأيام ما لقرارات مجلس الشيوخ نفسه من قوة ، وكانت سلطاته واختصاصاته . تزداد كلما ضعفت سلطات مجلس الشيوخ ، ونقصت اختصاصاته . لكن مجلس الشيوخ لم يكن إلا أدوات العليا على الرغم مما كان يغدق عليه من ضروب العطف والمجاملة .

وقد استخدم حقه بوصفه رقيباً فأعاد النظر فى عضويته أربع مرات ، وكثيراً ما استخدم حقه فى طرد بعض أعضائه منه لعجزهم عن القيام بالأعمال الرسمية أو لسوء سلوكهم الشخصى ، وقد رشح هو نفسه معظم أعضائه الجدد ، وكان من دخلوه من الكوسترين والبريتوزين والقناصل بعد انقضاء المدة المحددة لتوليهم مناصبهم ، كانوا كلهم ممن اختارهم هو أو ممن وافق على اختيارهم . وقد حشد فى هذا المجلس أغنى رجال الأعمال فى إيطاليا وانضمت الطبقتان إلى حدهما فى ذلك الائتلاف الذى هيأته لهما سيطرتهم على المتحدة التى اقترحا شيشرون فى الأيام الحالية . وبذلك وقفت قوة المال فى وجه كبرياء المولد وامتيازاته ، كما وقفت

الأرستقراطية الوراثية في وجه مساوى الثروة وأعمالها التي لا تتحمل لها تبعة .  
واقترنت اجتماعات مجلس الشيوخ بناء على اقتراح أغسطس على اليومين  
الأول والخامس عشر من كل شهر ، ولم يكن اجتماعه يدوم في العادة  
أكثر من يوم واحد . وإذا كان الذين يرأسون اجتماعه هم « زعماء الشيوخ »  
فإنه لم يكن يستطيع عرض أى اقتراح عليه بغير موافقته ، والحق أن كل  
اقتراح يعرض عليه كان يعده من قبل هو أو أعوانه . وأصبحت اختصاصات  
المجلس القضائية والتنفيذية وقتئذ أهم من اختصاصاته التشريعية ، فكان بمثابة  
محكمة عليا ، وكان يحكم إيطاليا بوساطة بلخان ، ويوجه أعمال الأشغال العامة  
المختلفة . وكان يحكم الولايات التي لا تحتاج إلى إشراف عسكري كبير ،  
ولكن الزعيم هو الذى كان يشرف على العلاقات الخارجية . ولما جرد  
المجلس بهذه الطريقة من سلطاته القديمة أهمل هو نفسه اختصاصاته الضيقة  
نفسها وصار يتخلى باستمرار عن كثير من التبعات للإمبراطور وموظفيه .  
وظلت الجمعيات تعقد جلساتها ، ولكن عدد هذه الجلسات أخذ يقل  
شيئاً فشيئاً ، وظلت تقترح ولكنها لم تكن تقترح إلا على المشروعات  
أو الترشيحات التي يوافق عليها الزعيم ، وقضى على حق العامة في تولى عليه  
المناصب أو كاد يقضى عليه في عام ١٨ ق . م حين صدر قانون يقصر  
تولي هذه المناصب على الرجال الذين تبلغ قيمة أملاكهم أربعمئة ألف  
سسترس ( ٦٠٠٠٠ ريال أمريكى ) أو أكثر (٢) . ورشح أغسطس نفسه  
للتنصلمة ثلاث عشرة مرة ، وسعى لنيل أصوات الناخبين كما كان يسعى  
غيره من المرشحين ؛ ونزل بذلك من عليائه للاشتراك في المسرحية التي  
كانت تمثل فصولها على مسرح السياسة الرومانية . وقد عمل على منع الرشا  
في الانتخابات بأن طلب إلى كل مرشح أن يودع قبل عملية الانتخاب  
مبلغاً من المال ضماناً منه بأنه لن يلجأ إلى الرشوة (٣) . بيد أن أغسطس  
نفسه وزع في وقت من الأوقات ألف سسترس على كل عضو ناخب

في قبيلته حتى يضمن بذلك صحة أصوات القبيلة<sup>(٤)</sup>. وظل القناصل والتربيونون ينتخبون حتى القرن الخامس بعد الميلاد<sup>(٥)</sup>. غير أن المنصبين أصبحا بعد أن آلت معظم حقوقهما إلى الزعيم منصبين إداريين لا تنفيذيين ، ثم انتهيا إلى أن صارا منصبى شرف لا أكثر.

أما حكم رومة الفعلى فقد وضعه أغسطس فى أيدي موظفين إقليميين يتقاضون مرتبات من الدولة وتساعدهم فى عملهم شرطة مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل يرأسها « كبير الشرطة البلدية Praefectus urbi ». وفضلا عن هذا فقد وُضع ست كتائب قوام كل منها ألف جندى بالقرب من رومة ، وثلاث كتائب فى داخلها ليضمن بذلك استتباب النظام من النوع الذى يريده ، ليؤيد بها سلطانه ، وإن كان قد اعتدى بهمله هذا على جميع السوابق أشد الاعتداء . وأصبحت هذه الكتائب فيما بعد هى الحرس الپريتورى ، أى حرس الپريتورىوم Praetorium أو مقر القائد الأكبر . وهذه الفرق هى التى جعلت كلوديوس إمبراطوراً فى عام ٤١ ب. م ، وهى التى بدأت عملية إخضاع الحكومة للجيش .

ثم امتدت عناية أغسطس الإدارية من رومة إلى إيطاليا وإلى الولايات الخارجية . فمنح حق المواطنة الرومانية أَوْحَق الانتخاب الضيق المعروف « بالحقوق اللاتينية » لجميع العشائر التى اشتركت فى تحمل أعباء الحرب على مصر . ثم أعان المدن الإيطالية بما نفحها به من هبات ، وزينها بالمباني الجديدة ، وابتكر طريقة تمكن أعضاء مجالسها من إعطاء أصواتهم فى انتخاب الجمعيات فى رومة بطريق البريد . ثم قسم الولايات فئتين : أولاهما ما تحتاج إلى دفاع جدى والثانية ما كانت فى غير حاجة إلى هذا الدفاع . فأما الثانية ( وكانت تشمل صقلية ، وبيتكا ، وغالة التربونية ، ومقدونية ، وآخية ، وآسية الصغرى ، بويثينيا ، وپنطس ، وقبرص ، وكريت . وقورينة ، وأفريقية الشمالية ، فمقدونىة ) فوضع حكمها فى يد مجلس الشيوخ . أما الثانية - وهى الولايات الإمبراطورية -

فكان يحكمها سفراؤه ، ووكلاؤه أو رؤساء حرسه . وقد أمكنه هذا النظام  
البيديع من أن يحتفظ بسيطرته على الجيش ، الذي كان يقيم معظمه في الولايات  
« المعرضة للخطر » . هذا إلى أنه وضع في يده موارد مصر الغنية وأمكنه  
من أن يراقب الحكام المعينين من قبل مجلس الشيوخ بأعين وكلائه الذين  
كان يعينهم لحماية الخراج من الولايات جميعها بلا استثناء . وكان كل حاكم  
يتقاضى في أيامه مرتباً محدوداً ، وبذلك قامت رغبته إلى حد ما في ابتزاز  
المال من أهل الولاية التي يحكمها . وكان إلى جانب الوالي هيئة من الموظفين  
المدنيين تساعد على دوام الاتصال في الأعمال الإدارية وتمنع إلى حد ما  
رؤساءهم الموقتين من الإقدام على الأعمال غير المشروعة .

أما أقيال الدول التي كانت خاضعة لنفوذ رومة فكانوا يعاملون  
معاملة طيبة حكيمة ، وظلوا بسببها موالين لأغسطس كل الولاء ، وقد  
أقنع الكثيرين منهم بأن يرسلوا إليه أبناءهم ليعيشوا في قصره ، وليتلقوا فيه  
تربية رومانية ؛ وأصبح هؤلاء الشبان بفضل هذا التدبير الكريم رهائن  
لديه حتى يحين وقت تتويجهم ، ثم صاروا بعدئذ على غير علم منهم أداة  
لصبغ بلادهم بالصبغة الرومانية .

ويبدو أن أغسطس بعد انتصاره في أكتيوم ، وما بعثه هذا الانتصار  
في نفسه من حماسة وزهو ، وبعد أن رأى من حوله جيشاً ضخمًا وأسطولا  
قويًا ، يبدو أنه أخذ بعد هذا يعد العدة لتوسيع رقعة الإمبراطورية ومد  
حدودها إلى المحيط الأطلنطي ، والصحراء الكبرى ، ونهر الفرات ، والبحر  
الأسود ، ونهري الدانوب والإلب ، وأنه كان يعتزم الاحتفاظ بالسلام الرومانية  
بسياسة العدوان عند هذه الحدود جميعها لا بسياسة الدفاع السلمي . وقد أم  
الإمبراطور بنفسه فتح أسبانيا ، ونظم الإدارة في بلاد غالة تنظيماً يدل على  
مقدرته ومهارته ، وكان من نتائجه أن ساد السلام ربوع تلك البلاد  
نحو قرن كامل . واكتفى في پارثيا باسترجاع الأعلام ، ومن بقي على  
قيد الحياة من الأسرى الذين أخذوا من كراسس في عام ٥٣ ، أما في

أرمينية فقد أعاد إلى عرشها ملكها تجرانيس Tigranes الموالى لرومة . وأرسل بعثات لفتح بلاد العرب ولكنها أخفقت . وأخضع ريبياه تيبيريوس ودروسس في العشر السنين المحصورة بين ١٩ ، ٩ ق . م بلاد إيريا Illyria وپانونيا Pannonia وريتيا Roetia ؛ ولما غزا الألمان غالة تذرع أغسطس بهذه الحججة فأمر دروسس أن يعبر نهر الرين ؛ ولشد ما اغتبط حين علم أن هذا الشاب قد شق طريقه إلى نهر الإلب . غير أن دروسس أصيبت أحشاؤه على أثر سقطة سقطها على الأرض عانى على أثرها المرض ثلاثين يوماً . وكان تيبيريوس شديد الحب لأخيه ، فسار على ظهر جواده أربعائة ميل من غالة إلى ألمانيا ليضمه إلى صدره في آخر ساعات حياته ؛ ولما تم له ذلك نقل بجثته إلى رومة ، وسار وراء الجنازة طول الطريق ( ٩ ق . م ) ثم عاد بعدئذ إلى ألمانيا وجعل على القبائل الضاربة بين الإلب والرين حملتين ( ٨ - ٧ ق . م - ٤ - ٥ ب . م ) خضعت على أثرهما لرومة .

وحلت برومة بعدئذ وفي وقت واحد تقريباً كارثتان بدلت حمى الفتح والتوسع سياسة سلام . ذلك أن پانونيا ودلماشيا اللتين فتحتا حديثاً ثارتا على رومة ، وقتل أهلهما جميع من كان فيهما من الرومان ، وأعدتا جيشاً مؤلفاً من مائتي ألف رجل وهددتا إيطاليا نفسها بالغزو . وأسرع تيبيريوس فعقد الصلح مع القبائل الألمانية ، وسار على رأس قواته القليلة إلى پانونيا ، واستطاع بصبره وخططه العسكرية الفنية أن يستولى على محصولات البلاد أو يتلفها فيحرم العدو من مصادر تموينه ، كما استطاع بحرب العصابات أن يمنع من إنتاج محصولات جديدة ، وعمل في الوقت نفسه على أن يوفر المؤن لجنوده . وأصر على العمل بهذه السياسة ثلاث سنين رغم ما وجه إليه من النقد في بلاده ، حتى نال أخيراً بغيته ، فرأى الثوار الجياع يلقون أسلحتهم ، وبسط هو السلطة الرومانية من جديد على ربوع البلاد . ولكن حدث في تلك السنة نفسها ( ٩ ب . م ) أن نظم أرمينيوس : الثورة في

ألمانيا ، وأوقع فيالق فاروس الوالى الرومانى فى كمين ، وقتل جنودها عن آخرهم إلا من انتحر بإلتداء نفسه على سيفه مثل فاروس نفسه . ولما سمع أغسطس بهذا النبأ « تأثر أشد التأثر » كما يقول سوتونيوس . وظل عدة شهور لا يخلق لحيته ولا يتمص شعر رأسه ، وكان فى بعض الأحيان يضرب الباب برأسه ويصيح بأعلى صوته : « أى كونتليوس فاروس أعد إلى فيالتي (٦) ! » وأسرع تيديريوس إلى ألمانيا : وأعاد فيها تنظيم الجيش ، وصد هجمات الألمان ، ورد حدود الدولة الرومانية ، بناء على أوامر أغسطس ، إلى نهر الرين .

وكان هذا قراراً خسر فيه أغسطس شطراً كبيراً من كبريائه ، ولكنه دل على حكمته وحصافة عقله . وقد أسلمت ألمانيا بمقتضاه إلى « البربرية » أى إلى ثقافة غير رومانية ولا يونانية ، وتركت حرة تسليح سكانها المتزايدين لمحاربة رومة . على أن الأسباب التى حملت الرومان على السعى لفتح ألمانيا كان من شأنها أن تتطلب منهم إخضاع سكوديا - أى جنوبى روسيا . لكنهم لم يفعلوا لأن الإمبراطورية يجب أن يقف امتدادها فى مكان ما ، وكان نهر الرين حداً للدولة خيراً من أى حد آخر غرب جبال أورال . هذا إلى أن أغسطس بعد أن ضم أسبانيا الشمالية والغربية ، وريشيا ، ونوركم ، وپانونيا ، وموزيا ، وجلاتيا ، وليسيا ، وپمفيليا شعر بأنه قد استحق بأعماله لقب « الإله المكثّر » . وكانت الإمبراطورية حين وفاته تشمل مساحة قدرها ٣٤٠٠٠٠ ر ٣ ميل مربع أى أكثر من مساحة الولايات المتحدة فى القارة الأمريكية ، وكانت تعادل مساحة رومة قبل الحروب البونية مائة مرة . ونصح أغسطس خليفته بأن يقنع بهذه الإمبراطورية وهى أعظم إمبراطورية شهدها التاريخ حتى ذلك الوقت ، وأن يوجه همه إلى توحيدها وتقويتها فى الداخل بدل أن يوسعها فى الخارج ، وأظهر دهشته من أن « الإسكندر لم ير أن تنظيم الإمبراطورية التى أنشأها أصعب من كسبها (٧) » وهذا بدأت السلم الرومانية Pax Romana .

## الفصل الثالث

### عهد الرخاء

لا يمكن أن يقال عن أغسطس إنه « فر من الميدان وسمى هذا الفرار سلماً » ؛ ذلك أنه لم تكفد تمضي عشر سنين بعد معركة اكتوبر حتى انتعشت بلاد البحر الأبيض المتوسط انتعاشاً لم يضارعه في سرعته انتعاش قبله . وقد كانت عودة النظام في حد ذاتها باعثاً قوياً على هذا الانتعاش ؛ وكيف يمتنع الرخاء من إجابة هذه الدعوة الإجماعية التي يتقدم بها إليه ما عاد إلى البحار من أمن وسلامة ، وإلى الحكومة من الاستقرار ، مضافاً إلى استمساك أغسطس بالقديم الموروث وتحفظه ، وإلى استهلاك كنوز مصر المدخرة ، واستغلال المناجم الجديدة ، وإنشاء دور سك جديدة ، وإلى ثقة الأهلين بالنقد وسرعة تداوله ، ومعالجة الزحام في إيطاليا بإقطاع الأهلين أرضاً يفلحونها ، وبنقلهم إلى أراضي المستعمرات ؟ ومن القصص الماثورة في هذا الصدد أن جماعة من بحارة الإسكندرية نزلوا في بتيولي ، وكان أغسطس قريباً منها ، فأقبلوا عليه في ملابسهم الزاهية وأهدوا إليه البخور كما يهدى البخور إلى الآلهة ، وقالوا له إنهم استطاعوا بفضلهم أن يسروا في البحر آمين ، وأن يتاجروا واثقين ، وأن يعيشوا سالمين (٨) .

ولم يكن أغسطس ، وهو حفيد رجل مصري ، يخالجه أدنى شك في أن خير سياسة اقتصادية هي السياسة التي تجمع بين الحرية والأمان . ومن أجل ذلك وفر الحماية لجميع طبقات الأمة بسن القوانين ، وبالذقة في تطبيقها ؛ ووضع في الطرق العامة حراسة قوية ، وأقرض ملاك الأراضي المال من غير فائدة (٩) ؛ وهذا نائفة الفقراء بما وزعه عليهم من قمح الدولة ، و«بالقرعة» والمدايا في بعض الأحيان . أما فيما عدا هذا فقد ترك للمشروعات الخاصة ، والإنتاج ، والتبادل ، حرية أوسع

مما كان لها من قبل ، على أن الأعمال التي تديرها الدولة كانت مع هذه الحرية كثيرة متنوعة إلى حد لم تبلغه من قبل ، وكان لها شأن أيما شأن في إنعاش الحياة الاقتصادية ؛ فقد شُيد في خلال هذه المدة اثنان وثمانون هيكلًا ، وأنشئت سوق عامة جديدة وباسلقا(\*) جديدة لتيسير الأعمال المالية وأعمال المحاكم ، وأقيم بناء جديد لمجلس الشيوخ بدل البناء الذي احترق فيه كلوديوس ؛ وشيدت صفوف الأعمدة لتخفيف حرارة الشمس ، وأكمل الملهي الذي بدأه قيصر وسمي باسم مرسلس زوج ابنة أغسطس ؛ واستحدث الإمبراطور الأثرياء على أن ينفقوا بعض أموالهم في تجميل إيطاليا بالباسلقات ، والهياكل ، ودور الكتب ، والملاهي ، والطرق . ويقول ديوكاسيوس إنه « أمر الدين يحتفلون بالنصر أن ينفقوا مغانمهم في تشييد مباني عامة تخلد ذكرى أعمالهم » (٩٠) . وكان أغسطس يرجو من وراء ذلك أن يجعل عظمة رومة سبباً في ازدياد سلطانه ورمزاً لهذا السلطان .

ومن أقواله في آخر أيامه أنه وجد رومة مدينة من الآجر ثم تركها وهي من الرخام (٩١) ؛ وتلك مغالاة تغتفر لقائلها ، فقد كان فيها قبل أيامه كثير من الرخام ، وبقى فيها من بعده كثير من الآجر ، ولكن الحقيقة أنه قلما فعل رجل لمدينة ما فعله أغسطس لرومة .

وكان ساعده الأيمن في إعادة بناء رومة ماركس فسبانيوس أجريبا Marcus Vispanius Agrippa ؛ وكان صديقه هذا قد اشترك مع ماسنتياس في تنفيذ سياسة أغسطس . ولما كان أجريبا إيديلا عام ٣٣ ق . م ضم الجماهير إلى جانب أكتافيان بأن فتح لهم ١٧٠ حمامًا ، ووزع عليهم الزيت والملح بلائمن ، وأقام لهم ألعاباً عامة دامت خمسة وخمسين يوماً ، وعين حلاقين لجميع المواطنين

(\*) الباسلقا Basilica عند الرومان هو كبير مستطيل الشكل ذو صفيين من العمدة . ينتهي بطرف نصف دائري ، كان يستخدم في الأعمال المالية والقضائية . وقد حول كثير من الباسلقات آخر الأمر إلى كنائس ( المترجم )

من غير أجور - ولعله أنفق ما تطلبه هذا كله من ماله الخاص . وكانت كفايته خليقة بأن يجعله قيصراً ثانياً ؛ ولكنه فضل أن يخدم أغسطس مدى جيل كامل . ومبلغ علمنا أنه لم يرتكب إثماً يشين حياته العامة أو الخاصة ، فقد تركه المغتربون الرومان ، الذين لم يتركوا أحداً غيره إلا سلقوه بالسنة حداد ، دون أن يمسه بقاله سوء . وكان هو أول روماني أدرك ما للقوة البحرية من خطر عظيم ، فوضع خطة لإنشاء عمارة بحرية وأنشأها ، وتولى قيادتها ، وهزم بها سنكستس بمبي ، وطهر البحر من القراصنة ، وكسب العالم لأغسطس معركة أكتيوم . وعرض عليه ثلاث مرات أن يقام له موكب نصر بعد هذه الانتصارات الرائعة ، وبعد أن هدأ أسبانيا وغالة والمملكة اليسبورية ، ولكنه رفض في كل مرة . وقد وهبه زعيمة ثروة طائلة اعترافاً منه بفضلِهِ ، ولكنه ظل رغم هذه الثروة يعيش عيشة خالية من البذخ والترف . وبذل جهوده كلها في إقامة المنشآت العامة كما بذلها من قبل في حفظ كيان الدولة ، فكان يستأجر بماله الخاص مئات من العمال لإصلاح الطرق ، والمباني ، والمجاري العامة ، وإعادة فتح قناة مارسيس المغطاة . وأنشأ هو قناة من نوعها جديدة ، هي قناة يوليوس ، وأصلح وسائل مد رومة بالماء باحتفار سبعائة بئر وإنشاء خمسمائة عين فوارة ، ومائة وثلاثين خزاناً .

ولما شكوا الناس من ارتفاع أثمان النبيذ أجابهم أغسطس بدهائه المعروف :

« لقد عمل صهرى أجربا على ألا تظماً رومة أبداً » (١٠) .

وأنشأ أجربا ، وهو أعظم المهندسين الرومان بلا منازع ، مرفأ واسعاً عظيماً ، ومركزاً لبناء السفن بإيصال بحيرتي لكريتس وأفرنيس بالبحر . وهو الذي أنشأ أول الحمامات العامة الرائعة الفخمة ، التي امتازت بها رومة فيما بعد على سائر مدن العالم . وشاد من ماله الخاص هيكلالفيينوس والمريخ أعاد بناءه هدرينان وهو المعروف لنا بهيكل الآلهة Pantheon في هذه الأيام ، ولا يزال يظهر عليه حتى الآن هذه العبارة M. ARGIPA... PECIT . ونظم أعمال مسح أراضي الإمبراطورية

مرة كل ثلاثين عاماً ، وكتب رسالة في الجغرافية ، ورسم للعالم خريطة ملونة على الرخام . وكان مثل ليوناردو دافنشى عالماً طبيعياً ، ومهندساً ، ومخترعاً للمقذوفات الحربية وفناناً . وكان موته المبكر وهو في سن الخمسين (١٢ ق. م) من الأحزان الكثيرة التي عكرت صفاء سنى أغسطس الأخيرة . وقد زوجه أغسطس بابنته يوليا ، وكان يرجو أن يرث الإمبراطورية من بعده لأنه خير من يستطيع أن يحكمها حكماً صالحاً نزيهاً شريفاً .

وكانت المنشآت العامة الكثيرة النفقة ، مضافة إلى الخدمات الواسعة التي تقوم بها الحكومة سبباً في زيادة المصروفات العامة زيادة لم يكن لها نظير من قبل . ذلك أن المرتبات كانت تؤدي وقتئذ للموظفين في الولايات وفي المدن ، وللحكام ورجال الشرطة ؛ وكان يقوم على حراسة البلاد جيش قوى دائم وأسطول ضخم ، وكانت المباني العامة التي لا عداد لها تشاد أو تصلح ، وكان العامة يرشون بالحبوب والألعاب ليظلوا هادئين . وإذا كانت هذه النفقات كلها إنما تؤدي من الإيرادات العادية ، ولم تحمل الأجيال التالية بدين أهلى ما ، فقد أصبحت الضرائب في أيام أغسطس علماً وصناعة دائمة . ولم يكن أغسطس نفسه بالرجل الصلب الذي لا يلين ؛ فكثيراً ما أعفى الأفراد المأزومين والمدن المأزومة من الضرائب أو أداها من ماله الخاص . وأعاد إلى البلديات خمسة وثلاثين ألف رطل من الذهب قدمت إليه « هدية تنويج » ، حينما اختير قنصلاً للمرة الخامسة ، ورفض هبات أخرى كثيرة (١٢) ، وألغى ضريبة الأراضي التي فرضت على إيطاليا في أثناء الحرب الأهلية ؛ وفرض بدلا منها على جميع سكان الإمبراطورية ضريبة مقدارها خمسة في المائة على الأموال التي يوصى بها لأى إنسان عدا الأقارب الأدينين والفقراء (١٣) ، كما فرض ضريبة مقدارها واحد في المائة على المزايدات العامة ، وأربعة في المائة من أثمان الأرقاء ، وخمسة في المائة عند تحريرهم ، وقرر عوائد جمركية تتراوح بين اثنين ونصف وخمسة في المائة على جميع البضائع



استولى على معسكر أكتافيان في فلپاي أن يمنح أغسطس لقب «أبي البلاد» .  
ولشد ما اغتبط مجلس الشيوخ بمنح الإمبراطور هذا اللقب وكثيراً  
غيره من ألقاب الثناء والتكريم ، فقد سره ألا يتحمل إلا القليل من تبعة  
الحكم ، وأن يحتفظ مع ذلك بالثراء ومظاهر الشرف . وكانت طبقة  
رجال الأعمال التي زادت ثروتها كثيراً عن ذي قبل تحتفل بذكرى مولده  
احتفالاً يدوم يومين كاملين في كل عام . ويقول سوتونيوس « إن الناس  
جميعاً على اختلاف أصنافهم وطبقاتهم كانوا يقدمون له الهدايا في اليوم  
الأول من شهر يناير » - أي في عيد رأس السنة . ولما أن دمرت النيران  
قصره القديم تبرعت إليه كل مدينة في الإمبراطورية بمقدار من المال  
ليستعين به على إعادة بنائه ، ويبدو أن كل قبيلة وكل نقابة فعلت هي  
الأخرى مثل ما فعلت المدن . وأبي أن يأخذ من أي فرد أكثر من دينار  
واحد ، ومع ذلك فقد حصل على ما يكفي لبناء القصر وزيادة . وقصارى  
القول أن جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط قد أحست بالسعادة بعد محنتها  
الطويلة ، وكان في وسع أغسطس أن يعتقد أنه استطاع بصبره وجهده أن  
ينجز العمل العظيم الذي أخذ على عاتقه أن ينجزه .

## الفصل الرابع

### إصلاحات أغسطس

لقد أشقى أغسطس نفسه إذ حاول أن يصلح قلوب الناس ويسعدهم معا ، وكان ذلك تطاولا منه لم تغفره له رومة أبداً ، ذلك أن إصلاح الأخلاق أشق أعمال الحكام وأكثرها دقة وخطورة ، وقل من الحكام من جرؤ على محاولته ، وقد تركه أكثرهم للمنافقين أو القديسين .

وبدأ أغسطس هذا الإصلاح بداية متواضعة لوقف تيار الانقلاب العنصرى فى رومة . ذلك أن سكان رومة لم يكونوا يتناقصون كما قد يتبادر إلى الأذهان ، بل كان هؤلاء السكان يزدادون زيادة مطردة بفضل المغريات الكثيرة ، وما كان يوزع عليهم من الأرزاق وما يستورد من الثروة ومن الرقيق . وإذ كان المحررون ينالهم نصيبهم من الأرزاق التي توزعها الدولة ، فقد أعتق كثيرون من المواطنين عبيدهم المرضى أو الطاعنين فى السن لكي تطعمهم الدولة ، وحرر أكثر من هؤلاء لبواعث إنسانية ، كما استطاع كثيرون منهم أن يقتصدوا من المال ما يبتاعون به حريتهم . وإذ كان أبناء المحررين يصبحون مواطنين رومانيين من تلقاء أنفسهم ، فقد تضافر تحرير الأرقاء وتكاثر الغرباء مع قلة تناسل عناصر السكان الأصليين على تبادل الطابع العنصرى لسكان رومة . وكان أغسطس يشك كثيراً فى إمكان استقرار أحوال بلد يسكنه هذا الخليط المختلف العناصر من الأهلين ، ويرتاب فى ولاء هؤلاء السكان إلى الإمبراطورية وهم الذين تجرى فى عروقهم دماء الشعوب المغلوبة على أمرها . لذلك عمل على سن قانون فوفيا كانينيا Lex Fufia Caninia (٢ ب : م) وغيره من القوانين التي تبيح لكل من يملك عبداً أو عبيدين لا أكثر أن يعتقه أو يعتقهما جميعاً ، ولن يملك - ثلاثة عبيد إلى عشرة أن يعتق نصفهم ،

ومن يملك أحد عشر إلى ثلاثين أن يعتق ثلثهم ، ومن يملك واحداً وثلاثين إلى مائة أن يعتق ربعهم ، ومن يملك مائة عبد وعبد إلى ثلثمائة أن يعتق خمسهم ، والتي لا تبيع لسيد أن يعتق أكثر من مائة من عبيده .

وقد يتمنى الإنسان أن لو حدد أغسطس اقتناء العبيد لا تحريرهم . ولكن القدماء كانوا يرون الرق عملاً لا غبار عليه . ويرون الاسترقاق قضية مسلماً بها لا تحتل جدلاً ، ولو أنه طلب إليهم أن يحرروا العبيد جملة لنظروا إلى ما ينجم عن هذا العمل من النتائج الاقتصادية والاجتماعية نظرة الرعب والهلع ، كما يخشى أصحاب الأعمال في وقتنا الحاضر ما عساه أن ينجم عن الضمان الاجتماعي للعمال من تراخ في العمل وقلة في الإنتاج . لقد كان تفكير أغسطس قائماً على المصالح العنصرية ومصالح الطبقات ، ولم يكن في مقدوره أن يرسم في ذهنه صورة لرومة القوية لا يتصف أفرادها بالخلق والشجاعة والمقدرة السياسية التي كان يمتاز بها الرومان الأقدمون بوجه عام والأشراف الأقدمون بوجه خاص . وكان ضعف العقيدة الدينية القديمة بين الطبقات العليا سبباً في القضاء على ما كان للزواج والوفاء والأبوة من حرمة وقداسة ، وكانت هجرة الناس من الأرياف إلى المدن قد جعلت الأطفال عبئاً ثقيلاً على آباءهم أو لعباً يتسلون بها على أحسن تقدير ، بعد أن كانوا مصدر ربح لهم . واشتدت رغبة النساء في التجميل واجتذاب الأموال بعد أن كن يزين أن خير زينة لهن هي إنجاب الأبناء . وقضارى القول أن الرغبة في الحرية الفردية بدت في ذلك الوقت مجافية لحاجات العنصر الروماني الأصيل . ومما زاد الطين بلة أن السعى وراء الهبات والوصايا أضحى وقتئذ أكثر الأعمال ربحاً في إيطاليا (١) . فقد كان الرجال الذين لأبناء لهم إذا بلغوا مرحلة العمر الأخيرة يجدون أحسن الترحيب في بيوت من لهم أبناء ، يستقبلون فيها ويطعمون ، وكان كثير من الرومان يحبون هذه المتعة وهذا النوع من الحياة اللينة ، حتى أصبحت سبباً آخر من أسباب العقم . يضاف إلى هذا أن طول سنى الخدمة العسكرية حال بين كثيرين

من الشبان وبين الزواج في أكثر سنى العمر صلاحية له . وامتنع كثيرون من الرومان الأصليين عن الزواج بتاتا ، وفضلوا الاتصال بالعاشرات أو اتخاذ السرارى والعشيقات حتى على تعدد الزوجات متفرقات . ويلوح أن الكثرة العظمى من المتزوجين عمدت إلى تحديد عدد أفراد أبنائها باللجوء إلى إجهاض الزوجات وقتل الأطفال ومنع الحمل (١٨) .

وأقلقت هذه المظاهر وأمثالها من مستلزمات الحضارة بال أغسطس وأقضت مضجعه ، وبدأ يشعر أن لابد من العودة إلى العقائد والأخلاق القديمة . وعاد إليه بعد أن صفا ذهنه وأنهك جسمه بفعل السنين احترامه لتراث الآباء والأجداد ، فأخذ يشعر أن ليس من المصلحة فى شىء أن ينفصل الحاضر عن الماضى انفصالا تاما ، بل الواجب أن تعمل الأمة - إذا أرادت لنفسها حياة صحيحة سليمة - على استمرار تقاليدها الماضية ، كما يجب على الفرد أن تكون له ذاكرة . ولذلك أخذ يقرأ يجد أكسبته إياه السنون تواريخ رومة القديمة ويعجب بالفضائل التى يعزوها المؤرخون إلى أهلها ، ويحسداهم عليها . ولشد ما كان يعجب بخطبة كونتس متلس فى الزواج ، فتلاها فى مجلس الشيوخ وأصدر أمراً إمبراطوريا بإذاعتها بين طبقات الشعب . وكان كثيرون من رجال الجيل القديم يتفقون معه فى آرائه فألفوا من بينهم حزبا متمزما شديدا الرغبة فى تقويم الأخلاق عن طريق التشريع ؛ وأكبر الظن أن ليفيا Livia أمدتهم بنفوذها . واستخدم أغسطس ماله من حقوق بوصفه رقيقاً وتربوياً فأصدر طائفة من القوانين - أو لعله حمل الجمعية على إصدارها - تهدف كلها إلى تقويم الأخلاق ، وتشجيع الزواج ، والوفاء بين الأزواج . والأبوة الصالحة ، والحياة البسيطة ، والعودة بها إلى السنن القديمة . وحرمت هذه القوانين على المراهقين - والمراهقات - أن يحضروا دور اللهو العامة إلا فى صحبة الكبار من أقاربهم ؛ ومنع بالنساء من مشاهدة الاستعراضات الرياضية ، وقصر أماكنهن فى المجتلدات على

المقاعد العليا ؛ ثم حدد مقدار ما ينفق من المال في البيوت ، وعلى الخدم ، والولائم ، والزواج ، والجواهر ، والملابس .

وكان أهم هذه « القوانين البولية » (\*) كلها « القانون اليوليائي الخاص بالعفة ومنع الزنى » « Lex Julia de pudicitia et de coercendis adulterus » ( ١٨ ق . م ) وبهذا القانون وضع الزواج لأول مرة في التاريخ الروماني تحت حماية الدولة بعد أن كان متروكا لسلطة الآباء في أسرهم Patria Potestas ، واحتفظ الأب بحقه في قتل ابنته الزانية هي وشريكها ساعة أن يضبطهما متلبسين بهذه الجريمة ، وأجيز للزوج أن يقتل عشيق زوجته إذا ضبطه في منزله ، أما زوجته فلم يكن له أن يقتلها إلا إذا ارتكبت الفحشاء في بيته هو . وكان يطلب إلى الزوج الذي يكشف عن خيانة زوجته أن يأتي بها إلى المحكمة في خلال ستين يوما من هذا الكشف ؛ فإذا لم يفعل هذا كان يُطلب إلى والد الزوجة أن يقوم هو بهذا العمل ؛ فإذا لم يفعل الوالد نفسه ذلك جاز لأى مواطن أن يتهمها . وكان عقاب المرأة الزانية أن تنفى من البلاد طوال حياتها ، وأن تجرد من ثلث ثروتها ومن نصف بائنتها ، وأن يحرم عليها الزواج مرة أخرى . وقد قررت هذه العقوبات نفسها على الزوج الذي يتغاضى عن زوجته الزانية . غير أنه لم يكن من حق الزوجة أن تتهم زوجها بالزنى ، فقد كان له أن يتصل بالعاشرات الرسميات المسجلات دون أن يعاقبه القانون على هذا الاتصال . ولم يكن هذا القانون يطبق إلا على المواطنين الرومان .

وأكبر الظن أن أغسطس سن حوالى ذلك الوقت قانونا آخر يعرف عادة باسم القانون اليوليائي الخاص بالزواج بين الطبقات Lex Julia de maritandis ordinibus وذلك لاحتوائه على فصل خاص بالزواج بين الطبقات أى بين الطبقتين العليين . وكان الهدف الذى يرمى إليه هدفاً مزدوجاً ، فقد كان يرمى إلى تشجيع الزواج وإلى تحديده معاً ، وذلك لأنه كان يعطل امتزاج الدم الروماني

( \* ) وسميت كذلك نسبة إلى القبيلة التى ينتمى إليها أغسطس بعد أن تبناه قيصر .

بالدم الغريب ، ويعيد إلى الزواج فكرته الأولى فكرة الاتحاد لإنجاب الأبناء .  
وكانت السبيل التي سلكها القانون للوصول إلى هذين الهدفين هي فرض  
الزواج على جميع الصالحين له من الرجال إذا كانوا أقل من سن الستين ، وعلى  
الصالحات له من النساء إذا كن أقل من الخمسين . وألغيت الوصايا التي  
كانت تشترط في الموصى له أن يظل عزباً ؛ وفرضت عقوبات على العزاب :  
فحرموا من الميراث عدا ميراث الأقارب إلا إذا تزوجوا في خلال مائة يوم  
بعد وفاة المورث ؛ كما منعوا من مشاهدة الحفلات والأعياد العامة .

ولم تكن الأراامل أو المطلقات يرثن إلا إذا تزوجن مرة أخرى في خلال  
سنة شهر من موت الزوج في الحالة الأولى ومن الطلاق في الحالة الثانية .  
وحرمت العانس والزوجة العقيم من الميراث إذا بلغت الخمسين من عمرها ،  
أو كانت أصغر من ذلك وكانت تملك خمسين ألف سترس ( ٧٥٠٠٠ ريال  
أمريكي ) . وحرم على الرجال من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ أن يتزوجوا  
من المحررات ، أو الممثلات أو العاهرات ، كما حرم على الممثل والمحرر أن  
يتزوج ابنة من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ . وفرضت على النساء اللاتي  
يمتلكن أكثر من عشرين ألف سترس أن يؤدين ضريبة سنوية قدرها  
١٪ من أموالهن حتى يتزوجن ، ثم تخفض هذه الضريبة بالتدرج كلما رزقن  
ابناً ، فإذا رزقن الطفل الثالث رفعت الضريبة عنهن ، وإذا كان لأحد  
القنصلين أبناء أكثر من زميله تقدم عليه . وكان يفضل في تولي المناصب  
العامة أكبر المتقدمين إليها أمراً متى كان صالحاً لتولي المنصب . وكان من  
حق الأم ذات الثلاثة الأبناء أن ترتدى جلباباً خاصاً *trium liberorum*  
وأن تحرر من سيطرة زوجها عليها .

وقد أغضبت هذه القوانين الطبقات جميعها حتى طبقة المتزمتين ، فقد اشتكى  
هؤلاء من أن « حق الثلاثة الأبناء » قد حرر الأم من سلطان الرجل تحريراً  
شديداً الخطورة . ومن الرجال من أخذوا يبررون عدم الزواج بقولهم إن « المراق

الحديثة « قد تطرفت في استقلالها ، وغطرستها ، ونزقها ، وإسرافها . وكانوا يرون أن حرمان العزّاب من مشاهدة المعارض والألعاب العامة عقاب قاس مستحيل التنفيذ ، ولهذا أمر أغسطس بإلغائه في عام ١٢ ق . م ؛ ثم خففت القوانين اليوليائية مرة أخرى بمقتضى قانون *پوپيا پوپيا* Popia Poppea ، وذلك بتخفيف شروط الميراث على العزّاب ، وبمضاعفة الفترة التي تستطيع الأرمال والمطلقات في أثناءها أن يرثن قبل أن يتزوجن مرة أخرى ، وبزيادة القدر الذي يستطيع أن يرثه من لا أبناء له . ثم أعفيت أمهات الأبناء الثلاثة من القيود التي وضعها قانون فوكونيا *lex Voconia* على الوصايا للنساء . وخفضت السن المحددة للتقدم للمناصب العامة بنسبة حجم أسرة من يتقدم لهذه المناصب . ولاحظ الناس بعد أن سنت هذه القوانين أن القناصل الذين وضعوا صبيغتها وأطلقوا أسماءهم عليها عزّاب لا أبناء لهم . وأضاف النمامون إلى ذلك أن الذي اقترح هذه القوانين على أغسطس - وهو الذي لم يكن له إلا ولد واحد - هو ماسناس الذي لم يكن له ولد ، وأنه في الوقت الذي سنت فيه كان ماسناس يعيش عيشة الترف والخنوثة ، وكان أغسطس يغوى زوجة ماسناس على الفحشاء (١٩) .

وليس في وسعنا أن نحكم على أثر هذه الشرائع التي تعد أهم الشرائع الاجتماعية في التاريخ القديم ، ولكننا نستطيع أن نقول إنها لم تسن بالعناية والدقة الواجبتين ، وإن من أرادوا خرقها كانوا يجدون فيها كثيراً من الثغرات ؛ فمنهم من تزوجوا إطاعة للقانون ثم ما لبثوا أن طلقوا زوجاتهم ؛ ومنهم من تبنتوا أطفالاً ليحصلوا بذلك على المناصب أو الوصايا ، ثم « حرروهم » - أي طردوهم من ديارهم بعدئذ (٢٠) . وأعلن تاسيتس بعد قرن من ذلك الوقت أن هذه الشرائع أخفقت في الغرض الذي كانت ترمى إليه : « فالزواج وإنجاب الأبناء لم يزيدا على ما كانا عليه من قبل ، وذلك لأن مغريات عدم النسل مغريات عظيمة القوة » (٢١) . ولم ينقطع الفساد الخلقى وإن أصبح الناس أكثر تأدياً فيه عما كانوا من

قبل ؛ ومنتبين من أقوال أوفاً أنه كان في طريقه إلى أن يصير فناً من الفنون  
الجميلة ، وموضراً يعني مهرة الخبراء بتعليمه للمبتدئين . والحق أن أغسطس  
نفسه كان يرتاب في قوة هذه الشرائع . وكان يتفق مع هوراس في أن  
انقوائين عبث لا طائل منه إذا لم تتغير القلوب (٢٢) . ولقد كافح كفاح  
الأبطال ليصل إلى قلوب الناس ؛ فكان يعرض من مقصودته في ساحة الألعاب  
أبناء جرمنيكوس الكثيرين ، وكان جرمنيكوس مضرب المثل في الأبوة ؛  
وكان يهب ألف سسترس للآباء ذوي الأسر الكبيرة (٢٣) ؛ وأقام نصباً  
تذكاريّاً لأمه ولدت خمسة أبناء (وهي لم تفعل ذلك بالطبع لبواعث وطنية) (٢٤) ؛  
ولشد ما اغتبط حين رأى فلاحاً يأتي راجلاً إلى رومة ومن ورائه ثمانية أبناء ؛  
وستة وثلاثون حفيداً ، وتسعة عشر من أبناء أحفاده (٢٥) . ويصوره  
ديوكاسيوس يخطب في الناس ويشهر « بانتحار العنصر » الروماني الأصيل (٢٦) .  
وكان يذله أن يقرأ مقدمة تاريخ ابني الأخلاقية ، ولعله هو الموحى بها .  
وقد أصبحت الآداب في عصره وبنائيره آداباً تعليمية عملية الصبغة ، وأقنع  
بنفسه أو عن طريق ماسيناس فرجيل وهوراس بأن يستخدم شعريهما في الدعاية  
إلى الإصلاح الخلقى والديني ، فحاول فرجيل في كتاب الزراعة Georgics أن  
يعيد الرومان بأغانيه إلى المزارع ، كما حاول في الإنيادة Aeneid أن يجتذبهم  
إلى الآلهة القدامى . أما هوراس فبعد أن ذكر أمثلة كثيرة لمسرات العالم حول  
أغانيه إلى الموضوعات الرواقية . وأقام أغسطس في عام ١٧ ب . م « الألعاب  
القرنية iudi saeculares (\*) » - التي ظلت قائمة ثلاثة أيام ، وشملت حفلات ،  
ومباريات ، واستعراضات ؛ وقد أقامها احتفالاً بعودة عصر زحل الذهبي ،  
وكلف هوراس أن يكتب Carmen saeculare لكي يغنيها في الموكب سبعة  
وعشرون فتى ومثلهم من الفتيات . وحتى الفن نفسه قد استخدم الإشارة إلى

(\*) معنى هذه العبارة الحرفي « الألعاب القرنية » لأنها لم تكن تقام إلا في

الأخلاق ، فقد مثلت في نقش أراپاسس Ara pacis البارز الجميل حياة رومة وحكومتها ؛ وشيدت المباني العامة الفخمة لتمثيل قوة الإمبراطورية وعظمتها ، وأقيمت عشرات الهياكل لتستثير في قلوب الناس ذلك الإيمان الذي كاد يموت .

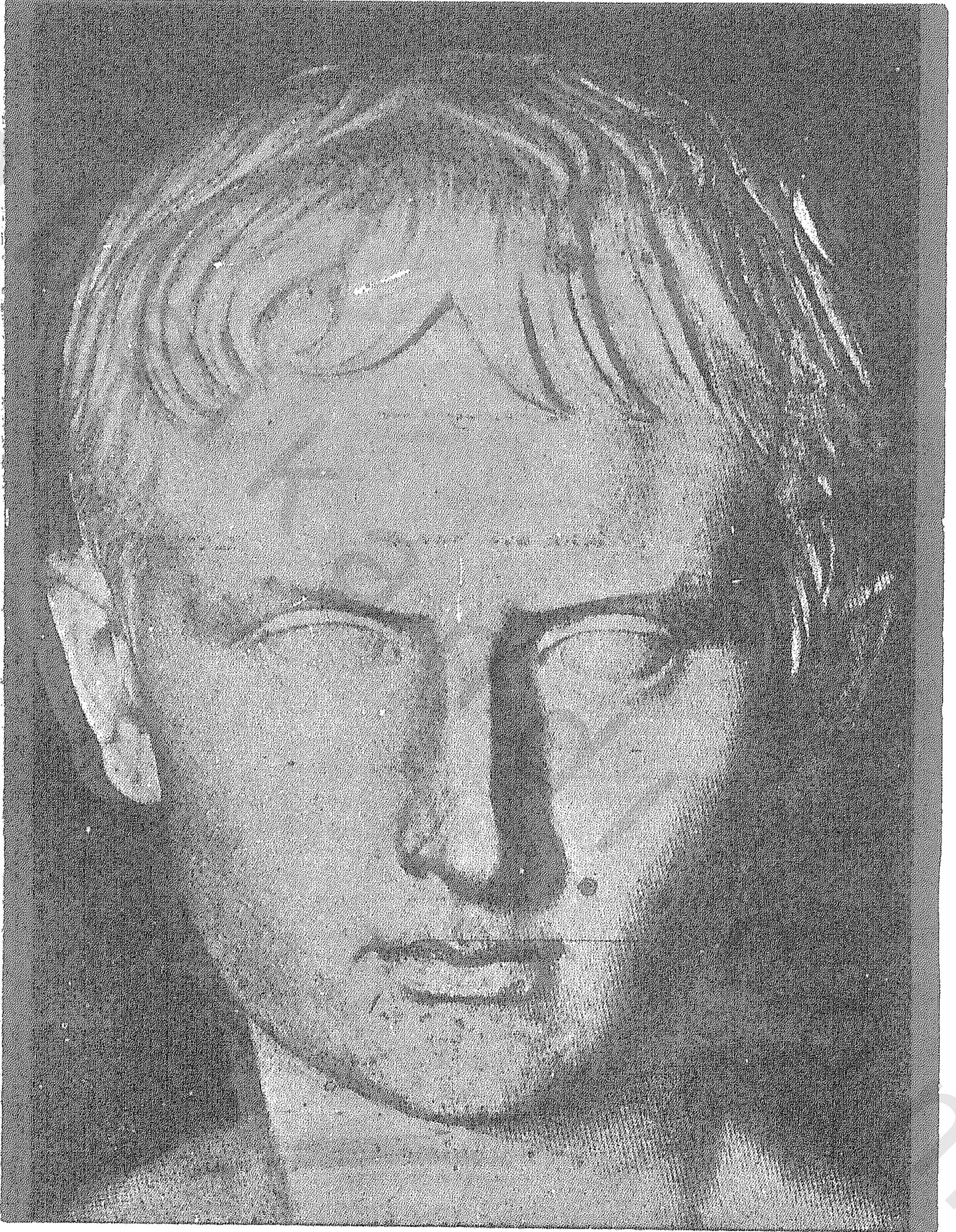
واقتنع أغسطس في آخر الأمر - وهو الرجل المتشكك الواقعي - بأن إصلاح الأخلاق لا بد أن ينتظر نهضة دينية . ذلك أن جييل المتشككين أمثال لكريشيوس وكاتلس وقيصر كان قد مضى وانقضى ، وأدرك أبناء هذا الجيل أن خشية الآلهة هي شباب الحكمة ، بل إن أوحد الساخر نفسه أخذ يكتب بعد قليل من ذلك الوقت على طريقة فلتيير فيقول : « إن من أسباب الراحة للإنسان أن تكون هناك آلهة ، وأن نعتقد بوجودها expeditesse deos, et un expedit esse putemuse » (٢٧) . وكانت عقول المتحفظين تعزو أسباب الحرب الأهلية وما جرته على الدولة من كوارث إلى إهمال الدين ، وما استتبع هذا الإهمال من غضب آلهة السماء . وأصبح الناس الذين حل بهم عتاب الآلهة في كل مكان من إيطاليا على استعداد لأن يعودوا إلى مذابح أبنلاد القديمة ، وأن يسبحوا بحمد الآلهة الذين أبقوا عليهم ليستمتعوا بعودة الدين إلى سالف عهده السعيد . ولما خلف أغسطس لپدس Lepidus الفاتر الإيمان بعد أن ظل صابراً زمناً طويلاً يترقب موته - لما خلفه في منصب الكاهن الأكبر « احتشد الناس من كافة أنحاء إيطاليا لينتخبوني لهذا المنصب حتى باغ عددهم حداً لم يبلغ مثله في رومة من قبل » (٢٨) . وتزعم هو حركة إحياء الدين وسار على نهجها ، وكان يرجو أن يكون الناس أكثر قبولاً لإصلاحاته السياسية والأخلاقية إذا ما ربطها رباطاً وثيقاً بالآلهة الرومانية . ومن أجل هذا رفع مقام الجماعات الأربع الكهنوتية ، وزاد ثروتها إلى حد لم يكن له مثيل في الأيام السالفة ، واختار نفسه عضواً في كل منها ، واضطلع بواجب اختيار أعضائها الجدد ، وكان يحرص كل الحرص على حضور اجتماعاتها ويشترك في مواكبها الفخمة الرهيبة

ثم حرم ممارسة العبادات والطقوس المصرية والأسبوية في رومة ، ولكنه استثنى اليهود من ذلك التحريم ، وأطلق الحرية الدينية لسكان الولايات ، وأغدق الهبات على الهياكل ، وجدد الاحتفالات والمواكب والأعياد الدينية القديمة . ولم تكن الألعاب القرنية احتفالات دنيوية كما يظن لأول وهلة ، فقد كانت تقام في كل يوم من أيامها الثلاثة طقوس وتتلّى فيه أناشيد ، أهم ما تُشعر به عودة صلوات الود الوثيقة بالآلهة . ولما أن تغذت العبادات القديمة بهذه المعونة الملكية العليا سرت فيها حياة جديدة . ومست من جديد شغاف قلوب الناس وآمالهم السماوية . ومن أجل هذا ظلت ثلاثة قرون صامدة للفوضى الناشئة من العبادات المتعارضة التي تسربت إلى رومة بعد أيام أغسطس . ولما أن ماتت بعد هذه القرون الثلاثة عادت من فورها إلى الحياة من جديد ، وإن اتخذت لها رموزاً جديدة وتسمت بأسماء جديدة .

وكان أغسطس نفسه من أكبر المنافسين لآلهته ، وكان قيصر قد ضرب له المثل في هذا التنافس : ذلك أن مجلس الشيوخ اعترف بالوهية قيصر بعد عامين من مقتله ، وما لبثت عبادته أن انتشرت في سائر أنحاء الإمبراطورية . وكانت بعض المدن الإيطالية منذ عام ٣٦ ق . م قد أفسحت لأكتافيان مكاناً بين معبوداتها ، وما وافى عام ٢٧ ق . م حتى أضيف اسمه إلى أسماء الآلهة في الترانيم الرسمية التي كانت تنشد في رومة ، وحتى أصبح يوم مولده يوماً مقدساً لا عيداً فحسب ؛ ولما مات أصدر مجلس الشيوخ قراراً أن تعبده رومة من ذلك الوقت وأن تعده من الآلهة الرسمية . وكان ذلك كله يعد عملاً طبيعياً لا غبار عليه عند الأقدمين لأنهم لم يدركوا بخلدهم قط أن ثمة ثغرة تفصل على الدوام بين الآلهة والآدميين ؛ فما أكثر ما كانت الآلهة تتخذ لنفسها أشكالاً آدمية ، ولقد كان ما لحرقل ، وليقورغ والإسكندر ، وقيصر ، وأغسطس وأمثالهم من عبقرية مبدعة يبدو للشرق المتدين بنوع خاص إعجازاً خليقاً بالتقديس . ألم يعتقد المصريون أن الفراغنة ، والبطالمة ، بل وأنطونيوس نفسه أرباب يعبدون ؟ ولقد

كان عسيراً عليهم أن يضعوا أغسطس في منزلة تقل عن هؤلاء . ولم يكن الأقدمون وهم يفعلون هذا من الغفلة والبلاهة بالدرجة التي يرميهم بها من يفعلون فعلهم في هذه الأيام ؛ فلقد كانوا على علم تام بأن أغسطس بشر ، فإذا ألخوا روحه أو روح غيره فإنهم لم يكونوا يستعملون لفظ إله theos, deus إلا بالمعنى الذي نستعمل نحن فيه لفظ قديس في هذه الأيام . والحق أن تقديس الموتى وليد التأليه الروماني ، وأن الصلاة للآدمي المؤله لم تكن تبدو لهم في ذلك الوقت أكثر سخفاً مما تبدو الصلاة للقديس في هذه الأيام .

وارتبطت عبادة عبقرية الإمبراطور في البيوت الإيطالية بعبادة أرباب المنازل وعبقرية أبي الأسرة . ولم يكن في هذه العبادة شيء عسير على شعب ظل عدة قرون يؤله الموتى من آباءه ، ويبنى لهم المذابح ، ويسمى مقابر أسلافه هياكل . ولما أن زار أغسطس آسية اليونانية في عام ٢١ ق . م وجد أن عبادته قد انتشرت فيها انتشاراً سريعاً ؛ وكانت الذنور تقدم إليه والخطب ترحب به بوصفه « المنقذ » و « ناقل الأنبياء السارة » و « الإله ابن الإله » . وقال بعض الناس أنه هو المسيح الذي طال انتظاره . أقبل يحمل السلام والسعادة لبني الإنسان (٢٩) . وجعلت مجالس الولايات الكبرى عبادته المحور الذي تدور عليه احتفالاتها ، وعينت مجالس الولايات والبلديات طائفة جديدة من الكهنة يدعون بالأغسطيين لخدمة الإله الجديد . وأبدى أغسطس استياءه من هذا كله ، ولكنه قبله آخر الأمر على أنه تمجيد روحي للزعامة ، وتقوية للرابطة بين الدين والدولة ، وعبادة مشتركة موحدة بين عقائد مختلفة مفرقة ، وهكذا رضى حفيد المرابي أن يكون إلهاً .



( شكل ٢ ) أغسطس الشاب

ობიექტივიზმი.com

## الفصل الخامس

### أغسطس نفسه

ترى أى رجل هذا الذى ورث ملك قيصر فى الثامنة عشرة من عمره ، وكان سيد العالم فى الحادية والثلاثين ، والذى حكم رومة نصف قرن من الزمان ، والذى شاد أعظم إمبراطورية فى التاريخ القديم ؟ لقد كان كثيراً جنداباً معاً ، ولم يكن أحد أسمى منه ، ولكن نصف عالم قد عبده رغم هذه السهاجة . وكان ضعيف البنية ، لا يمتاز بالشجاعة النادرة ، ولكنه كان قادراً على أن يهزم جميع أعدائه وينظم شئون الممالك ، وينشئ حكومة أفاءت على الدولة المترامية الأطراف مدى قرنين من الزمان رخاءً منقطع النظير .

وقد استنفد المثاليون كثيراً من الرخام والبرنز فى صنع تماثيل وصور له يظهره بعضها فى صورة الشاب الجاد المهذب الفخور الوجلى ، وبعضها فى صورة الكاهن المنقبض الصدر ، وبعضها قد غطت فيه نصف جسمه شاربات الملك ، وبعضها فى ثياب القائد العسكرى - فقد اضطر الفيلسوف على كره منه وبمشقة على نفسه أن يضطلع بواجب القواد . لكن هذه الصور لا تكشف عن الأمراض التى كان يشكو منها - وإن أوحى بها فى بعض الأحيان - وهى الأمراض التى جعلت حربه ضد الفوضى تتأثر فى كل خطوة بكفاحه فى سبيل صحته . ولم يكن بالرجل الوسيم الخلاق ، وكان ذا شعر أصفر بلون الرمل ، ورأس مثلث عجيب الشكل ، وحاجبين مقترنين ، وعينين صافيتين نافذتى النظرات ؛ ولكن ملامحه مع ذلك كانت هادئة ساكنة - على حد قول سوتنيوس - وقد باغ هدوؤه وسكونه حداً جعل أحد الغاليين ، وكان قد جاء ليغتاله ، يبدل نيته ويرتد عنه . وكان ذا جسد حساس يشوّهه القوب من آن إلى آن ؛ وقد أضعف داء المفاصل ( ٤ - ج ٢ - مجلد ٣ )

ساقه اليسرى فكان يعرج قليلا ، وكان يصاب في بعض الأحيان بنوع من التصلب شبيه بتصلب المفاصل تعجز معه يده اليمنى عن الحركة . وأصيب هو وعدد كبير من الرومان في عام ٢٣ ق . م بوباء يشبه التيفوس ، وكان يشكو من وجود حصا في المثانة ، ولا يستطيع النوم إلا بمشقة ، ويعانى في كل ربيع تمرداً في الحجاب الحاجز ، ويصاب بالزكام إذا هبت الريح من الجنوب . وكان شديد التأثر بالبرد ، ولذلك كان يلبس في الشتاء صديرية من الصوف يقى بها صدره ، ويلف اللفائف على فخذه وساقه ، ويلبس شعاراً وأربعة إشارات وعباءة ثقيلة . ولم يكن يجرؤ على تعريض رأسه للشمس ، وكان يتعبه ركوب الخيل ، فكان يحمل أحياناً في محفة إلى ميدان القتال (٣٠) . وظهرت عليه آثار الشيخوخة وهو في سن الخامسة والثلاثين بعد أن عاش في إحدى الفترات الحاسمة في تاريخ الإنسانية فأصبح عصبياً ، معتلاً ، سريع التعب ، ولم يكن أحد يحكم وقتله بأنه سيعيش أربعين سنة أخرى . وجرب عدداً كبيراً من الأطباء على اختلاف أنواعهم وجزاهم كلهم أحسن جزاء ، وكان منهم أنطونينس موسى الذى عالجه من مرض لم يكن معروفاً على وجه التحقيق (ولعله خراج في الكبد) بالكمامات والحمامات ، وقد كرم موسى هذا بأن أعفى جميع الأطباء من الضرائب (٣١) . ولكنه كان يعالج نفسه بنفسه في أكثر الأحيان ، فكان يعالج داء المفاصل بالاستحمام بالماء المالح الساخن وبالحمامات الكبريتية ، وكان يقل من الطعام ، ولا يتناول إلا الأطعمة البسيطة الخفيفة كالخبز الخشن ، والخبز ، والسملك ، والفاكهة . وقد بلغ من عنايته بما كلاه أن كان « في بعض الأحيان يتناول طعامه بمفرده قبل المآدب أو بعدها ، ولا يطعم أو يشرب شيئاً في أثناءها » (٣٣) . وقصارى القول أن روحه هى التى أبتت على جسمه وحملته حمل الصليب شأنه في هذا شأن القديسين في العصور الوسطى .

وكان جوهر طباعه حيوية أعصابه ، وقوة عزمته ، ونفاذ بصيرته ، وسعة

صدره ، وحسن تفكيره ، وقد قبل من المناصب عدداً يخطئه الحصر ، واضطلع بتبعات لم يضطلع أحد بأكثر منها إلا قيصر وحده ، وأدى ما تتطلبه هذه المناصب من واجبات بأمانة وذمة ، ولم تمتعه هذه الواجبات من أن يزأس جلسات مجلس الشيوخ بانتظام ، وأن يحضر المؤتمرات والاجتماعات ، وأن يحكم في مئات من القضايا ، وأن يتحمل على مريض حضور المآدب والحفلات ، وأن يدبر الحملات الحربية في البلاد النائية ، وأن يصرف أمور الفيالق الحربية والولايات ، وأن يزورها كلها تقريباً ، وأن يشرف على كل صغيرة وكبيرة من الأعمال الإدارية في دولاب الحكومة .

وفوق هذا كله ألقى مئات الخطب ، وأعدّها هو وحرص حرصاً يفخر به على أن يجعلها واضحة ، سهلة ، جميلة الأسلوب ، وكان يقرأها بعد إعدادها ويفضل ذلك على أن يرتجلها حتى لا ينطق بألفاظ يندم عليها بعد النطق بها ، ويحاول سوتونيوس أن يقنعنا بأنه لهذا السبب عينه كان يكتب مقدماً أحاديثه الهامة مع الأفراد ، حتى مع زوجته نفسها ، ويقرأها لهم (٣٣) .

وقد ظل يؤمن بالخرافات كما كان يؤمن بها معظم المتشككين في عصره بعد أن فقد إيمانه بدينه بزمن طويل . من ذلك أنه كان يحمل جلد عجل البحر ليتقى به شر الصواعق ، وكان يعتقد بالفأل والطيرة ، ويعمل في بعض الأحيان بما يترأى له في منامه من نذر ، وكان يأبى أن يبدأ رحلة في الأيام التي يرى أنها أيام مشؤمة (٣٤) .

وقد اشتهر في الوقت عينه بأنه واقعي في أحكامه ، عملي في تفكيره ، وكان ينصح للشبان بأن يبادروا بالانخراط في سلك الأعمال التي تتطلب منهم همة ونشاطاً حتى تقوم التجارب وضرورات الحياة ، مما أخذوه عن الكتب من آراء (٣٥) .

وقد احتفظ إلى آخر أيام حياته بعقليته الطيبة البرجوازية وبتحفظه وحذره

واعتمده في نفياته . وكانت الحكمة المحيية إليه هي قوله « بلادر على مهل »  
وكان يفوق معظم أمثاله من ذوى السلطان العظيم في تقبل النصيح واحتمال  
التأنيب بصدر واسع وتواضع عظيم .

وقد زوده الفيلسوف أثندورس Athendorus عندما همّ بوداعه وهو  
عائد من عنده إلى أثينة بعد أن عاش معه عدة سنين بنصيحة قال له فيها :  
« إذا غضبت فلا تقل كلمة أو تفعل شيئاً قبل أن تعدّ لنفسك الحروف الهجائية  
الأربعة والعشرين » .

وشكر أغسطس للفيلسوف تحذيره وتوسل إليه أن يبقى معه عاماً آخر  
وقال له : « لا خطر يتهدد الخير الذى يعود على الإنسان بفضل  
السكوت » (٣٦) .

لقد قلنا من قبل إن مما يثير الدهشة أن يتحول فيصر من رجل سياسى  
صخباب إلى قائد ماهر وحاكم سياسى محنك ؛ ولكن أكثر من هذا إثارة  
للدّهشة تحول أكتافيان القاسى القلب المنطوى على نفسه إلى أغسطس المتواضع  
الكبير العقل النبيل الطبع . ولقد حدث هذا التحول فى خلال نموه . إن  
الشاب الذى أجاز لأنطونيوس أن يعلق رأس شيشرون فى السوق العامة ،  
والذى تنقل من حزب إلى حزب دون أن يجد من ضميره تأنيباً على هذا  
التنقل ، والذى أطلق العنان لشهواته الحنسية ، والذى طارد أنطونيوس  
وكليوباترة إلى منيتهما دون أن تؤثر فيه صداقة أو شهامة - إن هذا الشاب  
العنيد الذى لا يجب أحداً لم يُسَمِّ عقله الساطان والجاه ، بل أصبح  
فى الأربعين سنة الأخيرة من حياته مضرب المثل فى العدل والاعتدال ،  
والإخلاص والنبيل والتسامح ، يضحك من سخريّة الشعراء به  
وهجوم إياه ، وينصح تيبيريوس أن يقنع بمنع أعمال العدوان أو محاكمة  
المعتدين ، والأيسعى لتكريم أنواهم ، ولا يصر على أن يعيش غيره من الناس  
عيشة البساطة التى فرضها هو على نفسه . فكان إذا دعا إلى وليمة ، انسحب منها فى  
بدايتها لكى يترك لضيوفها الحرية التامة فى الاستمتاع بالطعام والمرح . ولم يكن

مزهواً بنفسه ؛ وكان يستوقف الناخبين ليطلب إليهم أن يعطوه أصواتهم في الانتخاب ، وينوب عن أصحابه من المحامين في القضايا . وكان إذا دخل رومة أو خرج منها يفعل ذلك في السر لأنه يبغض مظاهر الأبهة ، وهو لا يظهر في نقش أراپاسيز Ara Pacis مميزاً عن غيره من المواطنين بأية علامة من علامات الامتياز ، وكانت استقبالاته الصباحية مباحة لجميع المواطنين ، وكان يستقبلهم كلهم بالبشاشة والترحيب . ولما تردد أحد الناس في أن يعرض عليه ملتصقاً ، لأمه مازحاً بقوله إنه يعرض عليه وثيقته « كأنه يقدم فلساً لفيل (٣٧) » .

ولما بلغ سني الشيخوخة ، وأحفظته الخيبة ، واعتاد عظيم السلطة ، بل اعتاد الألوهية ، تبدلت حاله فخرج عن تسامحه ، واضطهد أعداءه من الكتاب ، وصادر التواريخ التي تسرف في الانتقاد ، وأصم أذنه عن سماع أشعار أو قد التي يقول فيها إنه تاب وأتاب ، ويقال إنه أمر في يوم من الأيام أن تكسر ساقا ثالس Thallus أمين سره لأنه أخذ خمسمائة دينار لیبوح بما يحتويه أحد الخطابات الرسمية ، وإنه أرغم أحد محرريه على الانتحار حين تبين له أنه زنى برومانية متزوجة . وقصارى القول أن الإنسان إذا نظر إلى أخلاقه في جملتها لم يكن من السهل عليه أن يحبه ؛ وإن من واجبنا أن نتصور ما كان يعانيه من ضعف الجسم وما قاساه في شيخوخته من أحزان قبل أن تتفتح قلوبنا له كما تتفتح لقيصر المقتول أو لأنطونيوس المغلوب .

## الفصل السادس

### آخر أيام أغسطس

تكاد مآسى أغسطس وهزائمه كلها أن تكون في داخل بيته . وأول ما نذكره من هذه المآسى أنه لم يرزق من زوجاته الثلاث - كالاديا وأسكربونيا وليشيا - إلا طفلة واحدة ! ذلك أن أسكربونيا قد ثارت لطلاقها منه على غير علم منها بأن ولدت له يوليا Julia . وكان يأمل أن تلد له ليشيا ولداً ينشئه ويعلمه أساليب الحكم ، ولكن زوجها بأغسطس قد تكشف لسوء حظه عن زواج عقيم ، وإن كانت قد كافأت زوجها الأول بأن أنجبت له ولدين عظيمين هما تيبيريوس ودروسس . وإذا استثنينا هذا العقم فقد كانت هي وأغسطس سعيدين بهذا الزواج ؛ فقد كانت هي ذات جمال وجلال ، وخلق مكين وذكاء عظيم ؛ وكان أغسطس يعيد على مسامعها أنباء أهم ما يعتمز القيام به من الأعمال ، ولم يكن تقديره لمشورتها ينقص عن تقديره لمشورة أرجح أصدقائه عقلاً . وسئلت مرة كيف صار لها عليه هذا النفوذ العظيم ، فأجابت بقولها إن سبب ذلك أنى « عنيفة إلى أقصى حدود العفة . . . لا أتدخل مطلقاً في شئونه ، وأنى كنت أدعى أنى لم أر خليلاته ولم أسمع شيئاً عنهن أو عما كان بينه وبينهن من وقائع غرامية (٣٨) » . وكانت مضرب المثل في الفضائل القديمة ، ولعلها كانت تسرف في الإصرار على الدعابة لهذه الفضائل . وكانت تقضى أوقات فراغها في أعمال البر ، فتساعد الآباء ذوى الأسر الكبيرة ، وتهب البائعات للعرائس الفقيرات ، وتنفق على كثير من اليتامى من مالها الخاص . وكان قصرها نفسه أشبه بملجأ للآيتام ؛ ذلك أن أغسطس كان يشرف في هذا القصر وفي قصر أخته أكتافيا على تربية أحفاده ؛ وأبناء إخوته وأخواته ، وبناتهن ، وحتى على أبناء أنطونيوس الستة

الذين بقوا أحياء . وكان يرسل الذكور في سن مبكرة إلى الحروب ، ويعنى بتعليم البنات الغزل والحياكة ، « ويحرم عليهن أن يفعلن أو يقلن شيئاً خفية ، إن كان مما يصح أن يسجل في يومية المنزل » (٣٩) .

وأحب أغسطس دروسس ابن ليثيا ، وتبناه ورباه ، وكان يسره أن يورثه ثروته ومملكه ، وكان موت هذا الفتى في شبابه من أولى مآسي الأمبراطور . أما تيبيريوس فقد كان يحترمه ولكنه لا يحبه ، ذلك بأن تيبيريوس خليفة أغسطس كان صلفاً مفرطاً في ثقته بنفسه ، ينزع إلى الكآبة والحفاء . ولا شك في أن جمال ابنته يوليا وخفة روحها قد متعاه بالكثير من أوقات السعادة في أيام طفولتها . ولما بلغت الرابعة عشرة من عمرها أقنع أكتافيا بأن تسمح بطلاق ابنها مارسلس من زوجته ، وأغرى الشاب بأن يتزوج يوليا ؛ ولكن مارسلس توفي بعد سنتين من هذا الزواج ؛ وبعد أن حزنت عليه يوليا حزنا قصيرا أجل إشرعت تستمتع بجزية طالما تاقت نفسها إليها . غير أن الإمبراطور الشديد الولع بعقد عقود الزواج لم يلبث أن حمل أجريا على كره منه على أن يطلق زوجته ويقترن بالأرملة المرححة ( ٢١ ق . م ) زاجياً أن يثمر هذا الزواج حفيداً له يرثه بعد وفاته . وكانت يوليا وقتئذ في الثامنة عشرة من عمرها ، أما أجريا فكان في الثانية والأربعين ، ولكنه كان رجلاً صالحاً عظيماً وكان له من الثروة ما يحبب الناس فيه . وقد جعلت يوليا بيته في المدينة ندوة للمرح والفكاهة ، وأضحجت هي روح الشباب المرح في العاصمة « على نقيض ليثيا التي كانت تزعم طائفة المتزمتمين . وانطلقت الألسن تتهم يوليا بخيانة زوجها الجديد وتعزو إليها جواباً غير معقول عن سؤال غير معقول كذلك . فقد قيل إنها سئلت لم كان أبناؤها الخمسة الذين ولدتهم لأجريا مشابهن له فأجابت : « إني لا أقبل راكباً قط إلا إذا كانت السفينة قد امتلأت Munquam nisi nave plena tollo vectorem » (٤٠) . ولما مات أجريا عقد أغسطس آماله على ولدي يوليا الأكبرين جيوس ولوسيوس وعمرهما

بجبهه ، وعنى بتربيتهما ، وأمر بترقيتهما إلى منصبين كبيرين لا تجيز قوانين البلاد  
ترقيتهما إليهما في مثل سنهما . وأصحت يوليا أرملة مرة أخرى ، وكانت أبرع  
جمالاً وأكثر ثراء من ذى قبل ، فاندفعت مستهتره في كثير من مغامرات العشق  
أطلقت فيها ألسنة أهل رومة وجعلتها موضع تندرهم ولهوهم ، وخففت عنهم  
ما كانوا يجدونه من الضيق بسبب « القوانين اليوليوسية » . وأراد أغسطس أن  
يقطع ألسنة السوء عن الولوغ في عرضه ولعله أراد أيضاً أن يزيل ما بين زوجته  
وابنته من شقاق فزوجها مرة ثالثة ؛ فأرغم تيبيريوس ابن ليثيا على أن يطلق  
زوجته الحامل قيسانيا أجريپينا Vipsania Agrippina ، ابنة أچريپا ، وأن يتزوج  
يوليا التي لم تكن أقل منه كرهاً لهذا الزواج ( ٩ ق . م ) . وبذل هذا الشاب -  
وكان من الطراز الرومانى القديم - غاية جهده لى يكون زوجاً صالحاً ، ولكن  
يوليا لم تلبث أن امتنعت عن بذل أى جهد للتوفيق بين حياتها الأبيقورية  
وحياته الرواقية ، وعادت إلى مغامرات الحب الخفية . وصبر تيبيريوس  
على هذه الفضائح وكظم غيظه إلى حين ؛ وكان قانون يوليا الخاص  
بالزانيات Lex Julia de adulteriis يطلب إلى زوج الزانية أن يشكوها إلى  
المحاكم ؛ ولكن تيبيريوس عصى هذا القانون لى يرد الأذى عن واضعه ،  
ولعله أراد بذلك أيضاً أن يرد الأذى عن نفسه ، لأنه هو وليثيا كانا  
يأملان أن يتبناه أغسطس ، وأن يوليه زعامة الإمبراطورية من بعده . ولما  
تبين أن الإمبراطور يوثر عليه أبناء يوليا من أچريپا اعتزل مناصبه الرسمية ،  
وآوى إلى رودس ، وعاش فيها سبع سنين معيشة الرجل العادى البسيط  
قضاها في الوحدة والفلسفة والتنجيم . وخلا الجوليوليا ، وكان لها من الحرية  
ما لم تستمتع به قط من قبل فأخذت تنقل من عشيق إلى عشيق حتى كان  
قصف عشاقها ومرحهم يملآن السوق العامة صخباً وضجيجاً طوال  
الليل (١) .

وقاسى أغسطس وقتئذ ( ٢ ق . م ) ، وهو شيخ محطم في الستين من عمره ،

كل ما يقاسيه أب وحاكم يشهد بعينه انهيار أسرته وشرفه وشرائعه .  
وكانت هذه القوانين تحتم على أبي الزانية أن يتهمها بالزنى علناً إذا لم يتم  
زوجها بهذا الاتهام . وقد عرضت عليه أدلة قاطعة على سوء سلوكها ،  
ولما أعلن أصدقاء تيبيريوس أنهم سيتولون هم اتهام يوليا أمام المحاكم  
إذا لم يتهمها أغسطس ، قرر أن يسبقهم إلى العمل ؛ فأصدر قراراً بتني  
ابنته إلى جزيرة بندتيريا Pandateria ، وهي صخرة جرداء بالقرب من  
شاطئ كيبانيا ، في الوقت الذي بلغ فيه مرحها وفسادها ذروتها ،  
وأرغم أحد عشاقها وهو ابن من أبناء أنطونيوس أن ينتحر ، وتني عدداً  
آخر من العشاق خارج البلاد : وقتلت فوبي Phoebe إحدى معتوقات  
يوليا نفسها شتقاً مفضلة ذلك على الشهادة عليها . ولما سمع الوالد المنكوب  
بهذا النبأ قال : « وددت لو أني كنت والد فوبي ولا أكون والد يوليا »  
وكان ولداها جيوس ولوسيوس قد سبقاها إلى الدار الآخرة بزمن  
طويل ؛ فأما لوسيوس فقد توفي مرسيليا في العام الثاني قبل الميلاد على  
أثر مرض من الأمراض ، وأما جيوس فقد مات من جرح أصيب به في  
أرمينية ( ٤ ب . م ) . وألني أغسطس نفسه في شيخوخته من غير أنيس  
ولا وريث ، في الوقت الذي كانت فيه ألمانيا ، وپانونيا ، وغالة تهدد  
بالانتقاض عليه ، فأضطر على الرغم منه إلى استدعاء تيبيريوس ( ٢ ب . م ) ،  
وتبناه ، وأشركه معه في الحكم ، وأرسله لإخماد نار الثورة ؛ ولما غاد  
في العام التاسع بعد الميلاد بعد حروب طاحنة مظفرة دامت خمس سنين  
أقرت رومة ، وكانت تحتمد عليه لتزمته ، بأن تيبيريوس قد شرع يحكم  
البلاد بحق وإن كان أغسطس لا يزال زعيمها .

وبعد فإن آخر مآسى الحياة أن تدوم مأساتها على الرغم من صاحبها -  
أى أن يعيش الإنسان بعد أن ينحسر كل شيء ، وأن يحرم حتى من الموت . ولم  
يكن أغسطس ، إذا نظرنا إلى عدد السنين وحده ، قد بلغ أرذل العمر حين  
أخرجت يوليا من البلاد ، فقد كان غيره من الرجال وهم في سن الستين أقوياء

أشدهاء ؛ أما هو فقد حيي أكثر من حياة ، ومات أكثر من ميتة ، مذ جاء إلى رومة غلاماً في الثامنة عشرة من عمره ليثار لمقتل قيصر وينفذ وصيته . وكم من حرب خاض غمارها من ذلك الحين ، وكم من هزيمة أوشكت أن تحيق به ، وما أكثر ما غانى من آلام وأمراض وتعرض لمؤامرات وأخطار ، وما أكثر ما شاهده من مرارة الحمية ، وانهار أغراضه النبيلة وتبددها ؛ وقد حدث له كل ذلك في فترة لا تزيد على أربعين عاماً ، ملئت كلها بالآلام والمنغصات ، ورأى فيها آماله تضيع أملاً بعد أمل ، وأعوانه يختطفون منه واحداً بعد واحد ، حتى اختطف منه آخر الأمر تيبيريوس العنيد الشجاع نفسه ! ولعله كان يرى وقتئذ أنه كان خيراً له وأحكم أن يموت ميتة أنطونيوس في أوج العظمة وبين ذراعي حبيته . وما من شك في أنه كان يتحسر إذا ما عاد بذاكرته إلى تلك الأيام الجميلة ، حين كان قلبه يفيض بالسعادة إذا رأى يوليا وأجرها من حوله ، أو شاهد أحفاده يرحلون ويلعبون في أرض قصره . وما هو ذا يرى يوليا أخرى ابنة ابنته قد شبت عن الطوق وأخذت تسير سيرة أمها ، كأنها أخذت على نفسها أن توضح للناس جميع ما ورد في أشعار صديقها أوغد من أفانين العشق . ولما جاءت أغسطس الأدلة القاطعة على أنها زانية نفاها في عام ٨ ب . م إلى جزيرة في البحر الأديريوى ، ونفى أرفد في الوقت نفسه إلى تومي Tomi على شاطئ البحر الأسود ؛ ويروى أن الإمبراطور اليائس الضعيف قال وقتئذ : « يا ليتنى لم أتزوج قط ، أو ياليتنى مت دون أن يكون لى ولدا » وقد فكر في بعض الأحيان أن يميت نفسه جوعاً ولاخ له أن الصرح العظيم الذى شاده قد انهار من أساسه ، ذلك أن السلطات التى اضطاع بها لکنى يحفظ الأمن والسلام فى ربوع البلاد قد أضعفت مجلس الشيوخ والجمعيات التى استمد منها هذه السلطات ، حتى فقدت كل مقومات الحياة . فقبل مل الشيوخ التصديق على ما يطلب إليهم التصديق عليه كما ملوا إطراء أغسطس وتملقه ، فلم يعودوا يحضرون الجلسات . وأما الجمعيات فام تكن يجتمع فيها إلا حفنة من المواطنين ، وأصبح الموظفون الأكفاء ينفرون من المناصب التى

كانت من قبل تستشير مطامع الرجال المبدعين المبتكرين بما تخلعه عليهم من الجاه والسلطان ، وأضحى هؤلاء يرونها من دواعي الغرور الكاذب الكبير الأكلاف . وحتى السلم التي بسط أغسطس لواءها على البلاد ، والأمن الذي وطد دعائمه في رومة ، قد أضعفا قوى الشعب وأوهنا عزيمته ، فلم يكن أحد يرغب في الانضمام إلى الجيش ، أو يعترف بأن الحرب شر محتوم ، وأن لا بد من خوض غمارها من آن إلى آن ؛ وحل التزف محل البساطة في العيش ، والعلاقات الجنسية الطليقة محل الأبوة والأمومة ، وأخذ الشعب العظيم يسير مسرعاً بإرادته المضمحلة المنهوكة في طريق الفناء .

وكان الإمبراطور الشيخ يشهد هذه المآسي ويشعر بها ويدركها حق الإدراك . ولم يكن في وسع أحد من الناس أن يقول له وقتئذ إن الزعامة العجيبة الخاذقة التي أنشأها ستهب الإمبراطورية الرومانية أطول فترة من الرخاء عرفها البشر في تاريخهم كله ، وإن السلم الرومانية التي بدأت في صورة السلم الأغسطسية ستعد في عصور التاريخ المقبلة أجل الأعمال في تاريخ الحكم والسياسة رغم ما فيها من العيوب الكثيرة وعلى الرغم من أنه قد جاس على العرش في إثنائها بضعة ملوك بلهاء . لقد كان أغسطس وقتئذ يعتقد ، كما يعتقد ليوناردو دافنشي ، أنه أخفق فيما كان يبتغيه .

ووافته المنية وهو هادئ ساكن في نولا Nola ، وكان قد بلغ السادسة والسبعين من عمره ( ١٤ ب . م ) ، وقال لأصدقائه الذين التفوا حوله وهو على فراش الموت تلك الكلمات التي طالما اختتمت بها الملهاة الرومانية : « والآن وقد أتقنت تمثيل دوري ، فصفقوا بأيديكم وأخرجوني من المسرح بتصفيقكم » ، ثم عانت زوجته وقال لها : « تذكري عشرتنا الطويلة باليقيا . الوداع ! » .

ثم فاضت روحه بعد هذا الوداع البسيط (٤٢) . وبعد بضعة أيام من وفاته حملت جثته في شوارع رومة على أكتاف الشيوخ إلى ميدان المريخ حيث أحرقت بينما كان أطفال كبار الأسر في البلاد يرتاون ندبة الأموات .